جيزيل شارزات

العسكرة المتكاملة



IYAS AYASH

ترجمة عن الفرنسية

عمر كربوج



مراجعة

نخلة كلاس



دمشق ـــ أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١ ـــ ٢١٣٨٢١

تلكس : ٤١٢٠٥٠

ص.ب : ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي.السوري


العسكرة
المتكاملة

الطبعة الأولى
١٩٩٠

جيزيل شارزات

العسكرة المتكاملة

ترجمة عن الفرنسيّة
عمر كربوج

مراجعة
نخلة كلّاس

عـنـوان الـكـتـاب بالـلـغـة الـفـرنـسـيـة

Gisèle Charzat

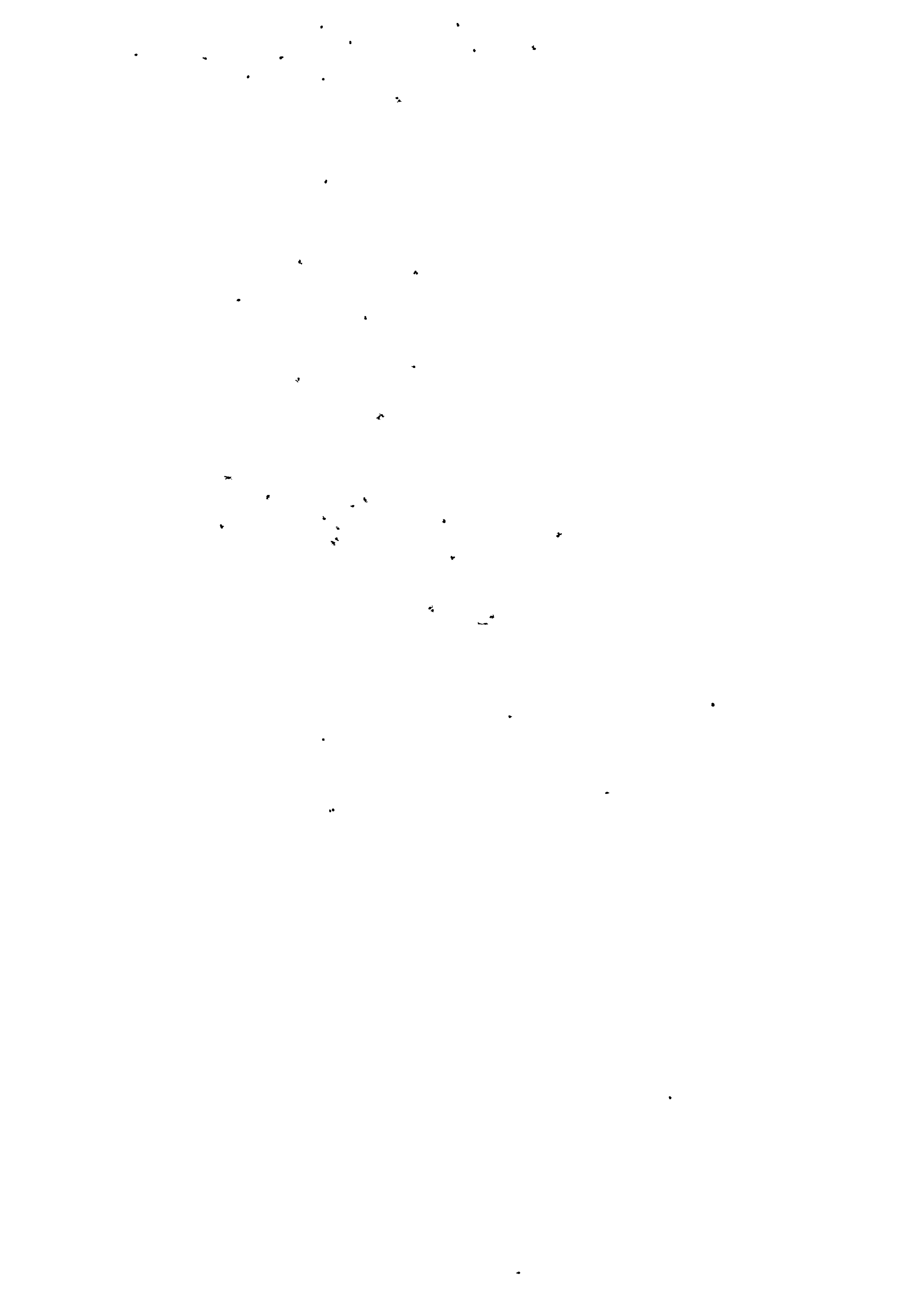
La militarisation intégrale



الإهداء

إلى لوسيان بوارييه

إلى هيلين وجان ميشيل



استعراض التحولات الاستراتيجية

احتلت التكنولوجيات العسكرية مكانة ثانوية في تاريخ الحرب حتى نشوب آخر نزاع دولي. وقد أثرت، بلا شك، في مصير المعارك، بيد أنها لم تحدد مصير النظام الدولي.

يتسم القرن العشرون بانقطاع في فن الحرب. وكان للأسلحة تأثيرها الحاسم، في تحديد نتائج النزاعات، وفي تحديد العلاقات الدولية.

إن المصادر والمراجع التي كانت تستخدم كاحداثيات أمام خيارات أصحاب القرار، قد قلبها، رأساً على عقب، ظهور التكنولوجيات العسكرية الجديدة، التي شاركت، منذ ذلك الحين، مشاركة مباشرة في غايات السياسة وأهدافها.

واستطاع علم الاجتماع العسكري، الذي يدرس الحروب

والنزاعات ، أن يميز ابتداء من ذلك أيضاً ، ثلاث مراحل تاريخية كبرى ومتعاقبة .

المرحلة الأولى : التي بدأت منذ فجر البشرية ، واستمرت حتى الحرب العالمية الثانية ، تتسم بغاية البطء في تطور الأسلحة ، التي لم تتدخل إلا كوسائل في مسيرة العمليات العسكرية ، أما تصميم الأسلحة وصناعتها ، فقد كانا من الأمور الهامشية التي تقوم بها المجتمعات المدنية ، التي كان تطورها ينجم عن نمو القوى المنتجة في زمن السلم .

فعصر المعارك التقليدية ذاك ، كانت تتناوب فيه فترات من السلم وفترات من الحرب ، وإبّان أول نزاع دولي ، مرت إدارة الحرب في أزمة عويصة، تطاولت وامتدت حتى العام ١٩٤٥ .

وقد قامت جدلية جديدة بين المجتمع وجيشه لدى أكثر الأمم تطوراً . في زمن الحرب كما في زمن السلم ، واقتضت ثغرات تكنولوجيا التسليح تغيير الجهاز العسكري ، وربطه ربطاً عضوياً بالمنحى الذي تسلكه السياسة .

كانت الحرب العالمية الثانية بداية مرحلة جديدة ــــ مرحلة

الاستراتيجية المتكاملة ــ . التي عرَّفها لوسيان بواريبه[1] بقوله : «إنها علم التخطيط وفنه (النظرية) والمناورة المستمرة للقوات (التطبيق) في زمن السلم وكذلك عند تأزم الأوضاع والحرب ، وكذلك القوى الحالية ، أو المتوقعة المنبثقة من تقدم طاقات المجتمع (مثلاً : الدولة ــ الأمة) ، وذلك بغية تحقيق مجمل غايات خطة المناورة (أو المشروع) على الرغم من المعارضات المعادية ، بمعونة (الحلفاء) وحسب قواعد الاقتصاد التي تحكم كل عمل جماعي . فالاستراتيجية المتكاملة تتقمص إذاً شخصية السياسة بالفعل» .

أحدث ظهور السلاح النووي انفصاماً جذرياً في تاريخ الحرب والسياسة . فهو سلاح نهاية العالم ، سلاح القضاء على الحضارات ، وهو الذي يردع القوى النووية عن اللجوء إلى استخدامه وينقل مكان ميدان المواجهة .

منذ ذلك الحين ، أصبح سباق الابتكار والتجديد التكنولوجي على صعيد التسليح يمثل (السهم الأخير) في جعبة المواجهة العسكرية ، ثم خلال عقود ما بعد الحرب العالمية الثانية ، زاد اتجاه

---

(١) لوسيان بواريبه «بحوث في الاستراتيجية النظرية» الكراس رقم ٢٢ ، «السيوف السبعة» مؤسسة دراسات الدفاع الوطني الفرنسية .

الاستراتيجية المتكاملة قيمة استراتيجية الوسائط ــ أو قيمة استراتيجية صناعة الأسلحة ــ التي نجم عنها مجموع القوات المكونة للجهاز العسكري .

أما المرحلة الثالثة ، وهي فترة (العسكرة المتكاملة) فقد بدأت مع ظهور مبادرة الدفاع الاستراتيجي[٢] للرئيس رونالد ريغان . وتدل المبادرة الأمريكية على حدوث انقلاب استراتيجي في تاريخ الحرب . يعادل الثورة التي أحدثها ظهور السلاح النووي . ولما كانت استراتيجية الوسائط ، وسيلة بيد القوة ، فالغاية منها ترجع إلى سياسة الولايات المتحدة . والمواجهة المستمرة مع الاتحاد السوفييتي ، ستنطلق ابتداء من ذلك الوقت فصاعداً ، على أرضية تصميم برامج التسليح . وهذه الأسلحة لم تعد ، كما كانت في الماضي ، قائمة على الطاقة التي تطلقها الأسلحة ، بل تقوم على إمكان حضورها الكلي في كل مكان ، وسرعتها الهائلة الفرط صوتية (٥ ماك فأكثر) . فالاستراتيجية العسكرية الأمريكية الجديدة طويلة الأمد ، وهي التي توجه السياسة ، وتعبئ عدداً كبيراً من مدنيي المجتمع ، بغية إحراز التفوق ، في امتلاك أسلحة (خاطفة) تتحدى الحرب البالستيكية ــ النووية .

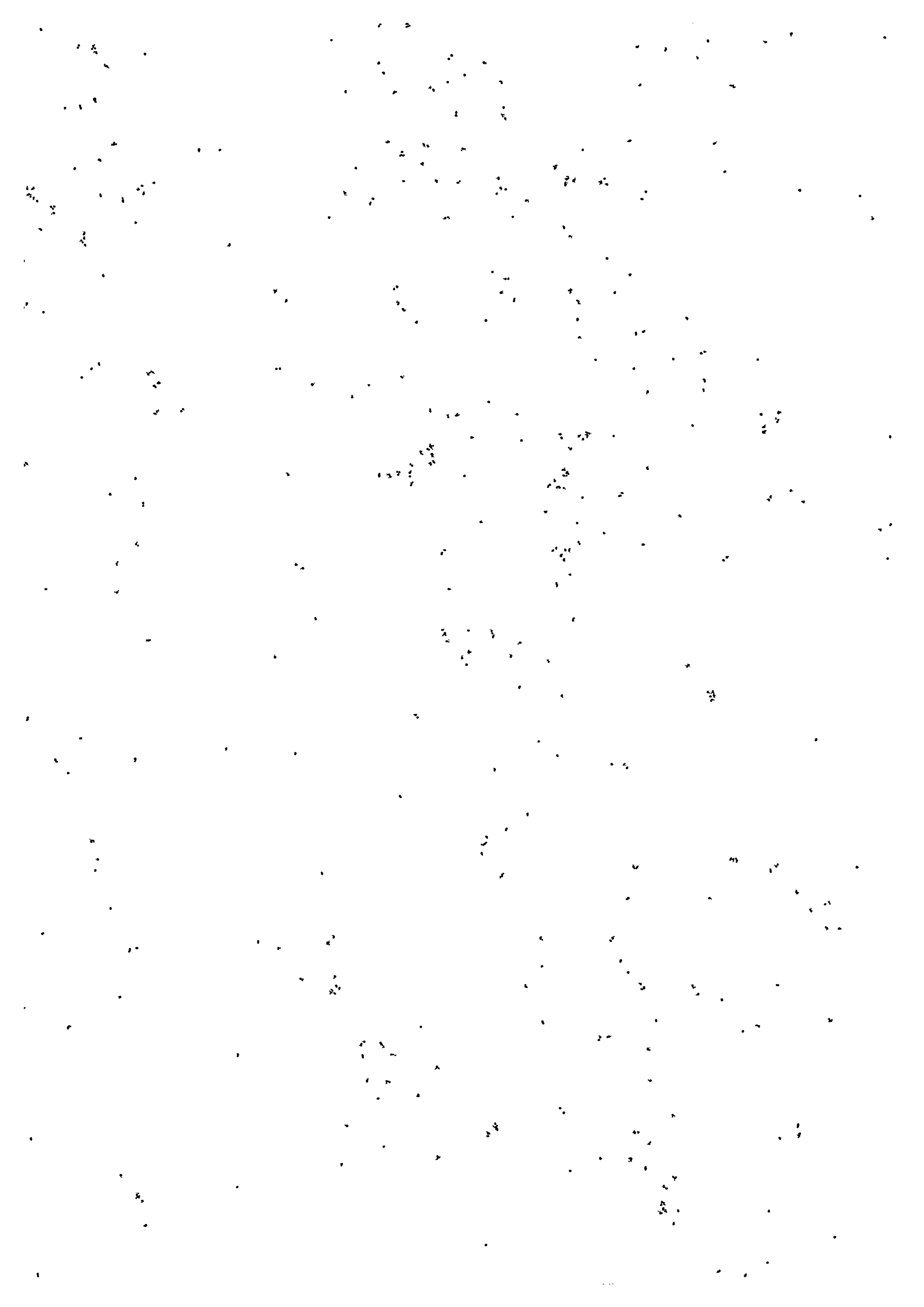
---

(٢) خطاب رئيس الولايات المتحدة بتاريخ ٢٣ آذار ١٩٨٣ عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي .

ومنذ عهد قريب، أصبحت المجابهة توجه تطور أكثر أمم العالم تقدماً، وتعبئ (أو تعسكر) قواها المنتجة، وتبدل أجواء العلاقات الدولية، بينما يحكم البرنامج العسكري الاستراتيجية المتكاملة لسياسة الولايات المتحدة رامياً إلى عسكرة المجتمع المدني.



من الاستراتيجية العملياتية
إلى الاستراتيجية المتكاملة



الاستراتيجية ـ التكتيك
واستراتيجية الوسائط

بقيت السياسة والحرب والسلام آلاف السنين، تنتظم وفق ترتيب ثابت دائم.

فالسياسة تمثل المعيار العالمي لسلوك الكيانات السياسية في مواجهتها مع كيانات أخرى. وهي تلجأ إلى النزاع السافر، عندما يتضح لها أنّ حل الخلافات بالطرق السلمية ضرب من المحال.

وما دامت الحرب المنفذ الأخير للعلاقات الدولية للخروج من القهر والإكراه، فإنها تحيا في ظل المجتمعات المدنية. أما في مسيرة العمليات العسكرية، فغالباً ما تختلط الاستراتيجية بالتكتيك، وتظل مجالاً متمماً.

لقد عرفها الجنرال بوفر[1] في العام ١٩٦٤ بقوله «إنها فن جدلية

---

(١) الجنرال اندريه بوفر «مدخل إلى الاستراتيجية».

(ديالكتيك) الإرادات التي تستخدم القوة لحل نزاعاتها». والاستراتيجية مكرسة لتحقيق الأهداف التي تحددها السياسة. غير أنه في التاريخ العسكري، لما كانت الاستراتيجية في القرون الماضية بعيدة عن كونها المكمل للهدف الأساسي، فهي لم تكن تعني سوى معارف القائد العام في زمن الحرب. وهي متحدرة من التكتيك وتعرف بأنها «فن استخدام الأسلحة في القتال لبلوغ أفضل النتائج».

نوعان من المعطيات ظلا يفرضان نفسيهما حتى قيام الحرب العالمية الثانية: الخلط المستمر بين الاستراتيجية والتكتيك هذا من ناحية، ثم الأهمية المتناقصة التي اتصفت بها استراتيجية الوسائط ضمن إطار الاستراتيجية، من ناحية ثانية. وقبل العام ١٩٤٥، كان تخطيط العمليات التكتيكية في الجيش الفرنسي يتم على نحو مستقل، على هامش المسألة العامة للحرب والاستراتيجية. وقد أشار الجنرال بوفر في كتابه (مذكرات)[٢] إلى أن التكتيك الصوري والجامد «كان يأخذ شكل تصميم وضعه أحد المهندسين».

والمارشال فوش شأنه شأن العقيد دوغول يرثيان لهذا الاختلال، بل هذا التناقض، القائم بين الاستراتيجية والتكتيك.

---

(٢) الجنرال اندريه بوفر «مذكرات ١٩٢٠ ـــ ١٩٤٠ ـــ ١٩٤٥» إصدار العام ١٩٦٩.

كان الحال نفسه أيضاً سائداً في بريطانيا العظمى، إذ إن مفاهيم كبار الاستراتيجيين، مثل ليدل هارت و«لورنس العرب»، قد رفضتها الأركان. فبناة الامبراطوريات يلوذون بأحلامهم المنفردة. كذلك كان تصلب القيادة العسكرية الفكري وشيخوختها يقودانها إلى أن تبخس استراتيجية الوسائط قيمتها وقدرها. ومن حروب الامبراطورية[٣] إلى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨، لم تغير تعديلات تكنولوجيا الأسلحة إلا قليلاً من المسائل العسكرية، ويذكر المارشال فوش في (مذكراته) بأنه لدى بدء الأعمال الحربية، في آب ١٩١٤، انطلق الجنود الفرنسيون إلى الجبهة ببزاتهم الحمراء المائلة للأرجواني، وهم يحملون عتاداً يرجع تاريخه إلى العام ١٨٧٥. إن اختراع الجنرال اتيين لدبابة الهجوم في العام ١٩١٧، واستخدام الفرنسيين والبريطانيين لها، كان من المفروض أن يمنحهم التفوق الحاسم. فبفضل ميزاتها النوعية، واستخدامها المكثف والمفاجئ، كانت تمثل وسيلة النصر بتحقيقها عنصر المفاجأة التقنية لما له من تأثير في الخصم. غير أن شيئاً من هذا لم يحدث، إذ دخلت دبابة الهجوم الحرب ببطء وبكميات مقتّرة، ولهذا لم تحدث خللاً في موازين القوى لمصلحة الحلفاء.

إن الوثبات التقنية النادرة، ومثلها التغيرات الطارئة على الأعتدة

---

(٣) حروب نابليون الأول.

القتالية، من الأمور التي لا تضع ــ إلا استثنائياً ــ في حوزة أحد الأطراف المتصارعة سلاحاً جديداً، متفوقاً على سلاح العدو، يحقق لمالكه النصر المادي والمعنوي.

غير أن الحروب الوطنية الحادة سليلة الثورة الفرنسية، أدت إلى بروز طريقتين أمام استخدام الأسلحة والقدرات العسكرية إبّان النزاعات العالمية الأخيرة. ولما كان هذان السبيلان تابعين لهدف النصر الحاسم، وذوي طابع تقني ــ عملياتي، فهما، لذلك، يشركان القوى الاقتصادية والبشرية (الديمغرافية) للأمم، في المواجهة بين القوى المسلحة.

السبيل الأول يتعلق بالحشد الصناعي للدول في زمن الحرب. إذ إن ضراوة النزاع (١٩١٤ ــ ١٩١٨) واتساع الجبهات التي تجمدت فيها حروب المواضع أو الخنادق، كانا يتطلبان فعالية أكبر في زج الوسائط العسكرية. فالصناعة الحربية، التي تستقطب مجموع الموارد الصناعية، ترمي إلى إحداث فقد توازن كمي في الأسلحة، مما ينهك الخصم. وكما كتب الجنرال جون ف. سي. فوللر[٤]: «عن طريق العديد من الخنادق، انتقل زمام المبادرة من الأركان العامة إلى المؤسسات الصناعية في الأمم المتصارعة».

أما السبيل الثاني فيلجأ إلى الاستراتيجية العملياتية التي يتضمن هدفها التخطيط للعمليات والإعداد لها وقيادتها، وهذه العمليات يتم

---

(٤) جون ف. سي. فوللر «المعارك الحاسمة في العالم الغربي» إصدار ١٩٨٠.

تنفيذها بأسلحة ومجموعات من القوات، لبلوغ الأهداف التي عينتها سياسة الدولة للاستراتيجية العسكرية، بتحطيم إرادة العدو. أما الاستراتيجية العملياتية، المدعومة بوسائط عسكرية ضخمة فتتصف بإطلاق العنان للعنف المسلح لتدمير موارد العدو الحيوية. فخلال الحرب العالمية الثانية، جرت هجمات مكثفة سميت (هجمات بث الذعر) أو (هجمات المناطق) الرامية إلى سحق مقاومة قوات المحور وشعوبها من المدنيين. ففي درسدن، في ١٣ شباط ١٩٤٥، أسفرت غارات ١٤٠٠ قاذفة بريطانية و١٣٠٠ قاذفة أمريكية عن سقوط نحو ١٥٠٠٠٠ ـ ٢٠٠٠٠٠ ضحية. ومن أيار إلى تموز ١٩٤٥، ألقت الغارات الجوية الأمريكية المكثفة على سكان اليابان كميات هائلة من القنابل المحرقة.

إن الإنتاج الصناعي الحربي، وهجمات التدمير المكثف، تضعان، أساساً، مرتكزات نظرية (التصعيد إلى الذروة) التي صاغها، في بداية القرن التاسع عشر، الاستراتيجي الألماني كارل فون كلاوزفيتز. غير أن هذين الطريقين التكتيكيين ـ العملياتيين بدأت الحدود تنتصب أمامهما إبان الحرب العالمية الثانية، إذ لم يعودا يستطيعان إحداث تأثير مفاجأة حاسم في العدو.

في التاريخ العسكري، كان النصر الصاعق من نصيب المعسكر الذي يعرف كيف يثير تأثير المفاجأة في الخصم.

يمكن إحداث مثل هذا التأثير بتمويه الأعمال الحربية عند مباشرتها . (هذا هدف استراتيجي) ، وذلك بالخدع العملياتية وتمويه استخدام القوات وأشكال هذا الاستخدام (طرائق الاستخدام والوسائط المستخدمة) ، ولا سيما تمويه التجديد الطارئ على إجراءات استخدام سلاح ما غير معروف .

فإذا ما أُحسن استخدام مثل هذا السلاح غير المعروف ، وتصميمه وصناعته سراً والكشف عنه فجأة ، فيمكنه أن يشل روح المقاومة لدى العدو .

وقد كشفت الحرب العالمية الثانية عن الثورة التي تحققت في الاستراتيجية العسكرية . ثم إن الدخول في مبارزة حتى الموت ، جعل كل معسكر يخشى التقصير في تحقيق عنصر (المفاجأة التقنية) . فالحلفاء الذين كانوا يخشون التقدم الألماني في إعداد السلاح الذري ، رفعوا وتيرة أبحاثهم بشأن هذه القنبلة . وهم يعلمون أن بقاءهم يتوقف ، للمرة الأولى في تاريخ البشرية ، على صناعة سلاح ما ، هو سلاح خارق لأن قدرته مطلقة وهذا وضع غير مألوف . وابتداء من ذلك الحين ظهر مفهومان لمسيرة القتال وتعايشا جنباً إلى جنب .

المفهوم الأول ، الذي يعطي الأولوية للمناورة العملياتية ، وقد أدى تطبيقة على اليابان ، إلى طريق استراتيجي مسدود ، لعجزه عن التغلب على مقاومة العدو .

المفهوم الثاني، الذي يراهن على استراتيجية الوسائط ويتجنب الاستراتيجية العملياتية، قد سبب انقطاعاً في تاريخ الحرب بافتتاحه عهداً من الاستراتيجية المتكاملة، وفي كل معسكر كانت ثمة مناورات عملياتية عملاقة تخفي دور استراتيجية الوسائط الجوهري.

برنامج مانهاتان أو

ظهور الاستراتيجية المتكاملة

إن جذور مانهاتان، برنامج البحث الذري العسكري الأمريكي العملاق، في الحرب العالمية الثانية، ممتدة في التربة العضوية الألمانية التي يرجع تاريخها إلى الثلاثينيات.

استولى هتلر على السلطة في ألمانيا وفي نيته أن يحقق الحلم الجرماني في السيادة الشاملة، وكان جيش الدفاع عن الامبراطورية[٥] يود، من ناحيته، أن يمحو عار الذل في معاهدة فرساي.

هذه المعاهدة لم تكن تحتوي طبعاً، أي ذكر للصواريخ التي لاحظ الجيش المذكور أن لا وجود لأي قيد على صناعتها. وسرعان ما اقتنع هتلر بأهميتها الحاسمة في حرب يعرف أنها قريبة. وللمرة الأولى في التاريخ

---

(٥) الدفاع عن الامبراطورية: تسمية أطلقت على الجيش الألماني من ١٩٢١ـ١٩٣٥.

العسكري، برمج وخطط سلفاً ولمدة طويلة، لسلاح المفاجأة التقنية. وطوال عقد من الزمن وأكثر ظل آلاف العلماء تحت إمرة الجيش، معبئين لهذا العمل.

في نهاية العام ١٩٣٥، شيدت قاعدة لاختبارات الصواريخ في بينموند، على شواطئ بحر البلطيق، وهناك، قبالة السويد، في معزل عن العالم، وبسرية تامة، أعدت الصواريخ الجديدة، صواريخ المستقبل ف ١، ف ٢.

ولما كان هتلر مقتنعاً بسداد خياره وصحته بشأن الصواريخ، فقد أهمل أعمال البحث بشأن اليورانيوم، لأن هذا علم يهودي بنظره. وقد قامت جماعات العلماء ومنهم الفيزيائي ويرنر ايزنبرغ الحاصل على جائزة نوبل، بجمع نحو مئة باحث. غير أن ما كان يجري في برلين في ٢٢ كانون الأول ١٩٣٨، أثار تساؤلات العلماء من أنحاء العالم.

في معهد كايزر ولهم، كان عالم معادٍ للنازية يدعى اوتوهان، وهو صديق قديم لاينشتاين، اكتشف انشطار نواة ذرة اليورانيوم، التجربة التي كانت فاتحة العصر الذري وألقت، بعد ذلك، العلماء في إعصار الحرب العالمية.

الفرضية التي صاغها في العام ١٩٠٣ السير رذرفورد الباحث البريطاني، «مع العلم أنه إذا وجد صاعق مناسب، فيمكن تصميم المادة

التي تجعل عالمنا القديم يتلاشى ويصبح دخاناً » ، لم تعد منذ ذلك الحين لغزاً نظرياً بل أصبحت مشكلة تقنية .

بعد ذلك بوقت قصير ، أعادت تجربة أوتوهان مجموعة الـ (كوليج دو فرانس)[٦] وعلى رأسها جوليو كوري . وفي مطلع ربيع ١٩٣٩ ، وبينما كانت قوات الدفاع الألمانية[٧] تستعد لغزو بولونيا ، اقتنع معظم الفيزيائيين بأن العالم يدخل في سباق الأسلحة النووية .

في الولايات المتحدة ، كان جورج ب . بغران ، عميد كليات البحث في جامعة كولومبيا ، يعلم الأركان العليا الأمريكية ، بتشجيع من ليوزيلارد ، وهو فيزيائي من أصل هنغاري ومساعد سابق لاينشتاين ، أن « إمكان استخدام اليورانيوم كمتفجر ، يحرر من الطاقة ما يفوق مليون مرة ما يحرره الوزن نفسه من أية مادة متفجرة أخرى معروفة » . وفي هولندا ، وبريطانيا العظمى ، كانت السلطات السياسية ، بتحذير من العلماء ، تتخذ الإجراءات الأولية للحؤول دون توصل الألمان إلى إقامة مخزونات لليورانيوم .

في ١١ تشرين الأول ١٩٣٩ ، وصلت إلى رئيس الولايات المتحدة ف . د . روزفلت ، رسالة من اينشتاين تحمل تاريخ آب ١٩٣٩ ، تحذره من

---

(٦) مؤسسة تعليمية أسست في باريس ١٥٢٩ ، وهي مستقلة عن الجامعة .

(٧) تسمية أطلقت على مجموع القوات المسلحة الألمانية من ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ ، وقد ضمت في صفوفها في هذه الفترة نحو ١٨ مليون مقاتل .

أن قنبلة ذرية واحدة يمكنها تدمير مدينة بكاملها مع جزء من ضواحيها المجاورة، فاستدعى الرئيس روزفلت سكرتيره حالاً، وكان آنذاك الجنرال ادوين واتسن، وأبلغه قائلاً: «هذا حري باهتمامنا». وفي المساء ذاته، شكلت لجنة، برئاسة الدكتور ليمان جي. بريغس، مدير دائرة الإجراءات في الولايات المتحدة، لدراسة إمكانات الانشطار الذري.

منذ ٣ أيلول ١٩٣٩، عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، كان معظم الفيزيائيين يعيشون في الولايات المتحدة، وأغلبهم من أصل يهودي، اضطهدتهم النازية وطردتهم من بلادهم الأصلية، وقد ضغطوا على السلطات السياسية العليا الأمريكية لتسريع الأعمال في التفاعل الذري المتسلسل.

طالب اينشتاين، على الرغم من قناعاته السلمية، بإجراء (تجارب على مستوى واسع ودراسة التطبيقات العملية).

إن انخراط بعض العلماء مثل زيلارد واينشتاين وتللر وويغنر، في صراع شرس ضد النازية تمثل في مشروع مانهاتان في العام ١٩٤٢.

ولما كان الرئيس الأمريكي روزفلت مقتنعاً، قبل الرأي العام الأمريكي، بدخول الولايات المتحدة الوشيك الحرب العالمية، فقد أنشأ هيئة تخضع لسلطته المباشرة، وكلفها متابعة مجموع المسائل العلمية ذات المجال العسكري، ثم استعان ببعض الشخصيات من الجامعة مثل: وانفار بوش،

وهو عالم رياضيات ذائع الصيت في معهد ماساشوست للتكنولوجيا، وعهد إليه بالإدارة، يعاونه في ذلك جيمس كونانت، عالم بالكيمياء، ورئيس سابق لجامعة هارفارد، وأنشئت دائرة خاصة لصناعة اليورانيوم، تحت اسم رمزي: (س ١).

من بريطانيا العظمى، وحسب مذكرة العالمين اوتو فريش ورودلف بيرلز من جامعات كاليفورنيا ونيويورك، ومن خلال أعمال انريكو فيرمي وروبير أو بنهيمر، ثبت بالتأكيد أنه أصبح واضحاً من الآن فصاعداً، إمكان صناعة القنبلة الذرية. وأدى اشتراك الولايات المتحدة في الحرب العالمية، إلى خطوة البدء ببرنامج إنتاج المتفجرات الذرية. وتحددت مرحلتان قبل طور الاختبار والتجربة.

فابتداء من العام ١٩٤٢، أوعز رئيس الولايات المتحدة إلى الجيش بمهمة استنفار العلم الأمريكي بكليته من أجل الإشراف على اتجاه البحث الذري. وأرست الولايات المتحدة، مع ثقل مقدرتها كله، قواعد استخدام استراتيجية وسائط قوية، عاملة على اللقاء والربط بين قوى البحث العلمي والقوات المسلحة ربطاً مكثفاً.

كانت الولايات المتحدة تنوي، من خلال سرعتها، التغلب على الخصم باستخدام طاقاتها العسكرية والعلمية كافة. وبعد أن ألقيت على عاتق الجنرال لسلي غروفس من نقابة المهندسين، وباني البنتاغون، مسؤولية المشروع، كان هذا يضطلع، من مقره في نيويورك، بمهام برمجة القنبلة،

واستخلص، مع دعم العلماء له، الاتجاهات التمهيدية، ثم الأولويات الضرورية لتقدم الإنجازات الصناعية والإسراع بها.

هذا البرنامج العسكري، وهو أول تخطيط ضخم للبحث الأمريكي، أطلقت عليه تسمية مانهاتان.

في آب ١٩٤٢، بدت الجهود الأولية مثمرة: فقد تم استخلاص البلوتونيوم. وبعد ذلك بقليل، في كانون الأول ١٩٤٢، نجح انريكو فيرمي في إحداث تفاعل متسلسل، ابتداء من بطارية تجريبية.

قررت الولايات المتحدة، ابتداء من ذلك الحين، الانتقال إلى مرحلة الإنجازات العملية الكبرى. وبسرعة تامة، تم بناء ثلاثة مراكز واسعة للبحث، وعرفت بأسماء رمزية هي: اكس، واي، دبليو، وقد بنيت في سرعات قياسية.

الموقع الأول: اكس، يقع في أواك ريدج، في وادي تنيسي، ويضم طرازين من مصانع فصل النظائر لليورانيوم ٢٣٥.

الموقع الثاني: واي، ويقع في هانفورد، في ولاية واشنطن، ويضم بطاريات من الغرافيت منتجة للبلوتونيوم.

الموقع الثالث: دبليو، يقع في لوس الاموس في ولاية نيومكسيكو، ويضم أبحاث بناء القنبلة. ويتحقق فيه توحيد المعرفة ضمن نظام عسكري صارم. وكان هناك ما يزيد على ألف عالم هجروا بيوتهم، وجامعاتهم،

ومخابرهم، وبلادهم، والتزموا بعدم مغادرة المركز، والبقاء فيه ستة شهور أخرى أيضاً، بعد انتهاء النزاع العالمي. وفوق هذه الهضبة المعزولة، نسق روبير جي. اوبنهيمر عمل الفرق التي تعد أكثر الأدمغة العلمية شهرة، مثل بييرلز وفوش وويسكوبف ونيلز بوهر.

شمل تنفيذ القنبلة دروس المعرفة العلمية كلها، وتطلب تعدد العلوم وتنوعها: فكان هناك علماء في الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وخبراء في التعدين، وفي علم القذائف.

آلاف الفنيين والمهندسين يمثلون مجالات واسعة من الكفاءات، ساهموا في هذا العمل الجماعي، منذ بناء المنشآت الصناعية حتى الأعمال البيولوجية.

أما في المجموعة الصناعية الذرية الفرنسية، فكان العالم برتراند غولد شميدت، الذي ساهم في مانهاتان، قد أبدى الملاحظة التالية: «إنها مجموعات حقيقية تمكنت من العمل على تطوير مجال علمي محدد على جبهة لا يعرف عرضها حتى الآن».

وابتداء من العام ١٩٤٤، ضم مشروع مانهاتان أكثر من ١٥٠٠٠٠ باحث علمي موزعين، تفصل بينهم حواجز صارمة، ويربط بينهم الكتمان في العمل، أما النفقات الإجمالية للعملية، فقد تجاوزت الملياري دولار آنذاك.

وفي آذار ١٩٤٥ ، عولجت مسألة استخدام القنبلة للمرة الأولى بين الرئيس فرانكلين روزفلت ووزير حربيته هنري ستيمسون . ولم يتخذ أي قرار بسبب مرض الرئيس روزفلت، ثم وفاته في ١٢ نيسان ١٩٤٥ .

علم خليفته الرئيس هاري ترومان في ٢٥ نيسان ١٩٤٥ بهذا التجديد الاستراتيجي الناجم عن القنبلة الذرية. فقرر تشكيل لجنة منتدبة مكلفة بتقويم نتائج الانفجار الذري العسكري. وقد ساهم في هذه اللجنة ثلاثة علماء هم: كارل كومبتون، فانفار بوش، جيمس كونانت، وهم أنفسهم كانوا يستشيرون علماء آخرين هم: انريكو فيرمي وروبير أو بنهيمر، ارنست لورنس، ارثور كومبتون.

كانت ألمانيا قد استسلمت . أما استسلام اليابان فكان يمثل في رأي الولايات المتحدة ضرورة عاجلة. فالامريكيون يريدون الحفاظ على حياة جنودهم، والثأر من هجوم بيرل هاربور، وكانوا يطمحون عشية المفاوضات الدولية المقبلة، إلى تقليص دور الاتحاد السوفييتي في آسيا.

في الأول من حزيران ١٩٤٥ قدمت اللجنة الوسيطة للرئيس ترومان تقريراً تنصح فيه باستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان، وورد في التقرير ما يلي: «يجب استخدام القنبلة بأسرع ما يمكن ضد اليابان، بلا تحذير يسبقها، وفوق هدف شديد الكثافة السكانية وذي صفة عسكرية، على نحو يتيح الحصول على أشد تأثير نفسي».

حسبت اللجنة الوسيطة آثار العنف المادي، تبعاً للهدف الذي

يعود بالمردود الأقصى وإنزال أكبر الخسائر، كما حسبت الذعر الفوري الذي ينبغي للقنبلة أن تحدثه للقضاء على المقاومة الشرسة التي تبديها اليابان، لإرغامها على الاستسلام على الفور.

بينما كان مؤتمر بوتسدام منعقداً، ويضم في سيسيليانهوف كلاً من ترومان وتشرشل وستالين، كانت الولايات المتحدة في ١٦ تموز ١٩٤٥ تقترب من المرحلة الأخيرة من التخطيط لهذا المجهول الذي يمثله صنع القنبلة الذرية، وبعد ثلاث سنوات من حمى الإعداد، حلت ساعة الحقيقة.

وفي صحراء آلاموغورد، حضر جميع المسؤولين عن عملية مانهاتان، كما حضر بعض العلماء، وكانوا يراقبون بدهشة وقلق هذه التجربة، التي نجحت في المرة الأولى، وفرضت القنبلة الذرية نفسها سلاحاً لإنهاء العالم.

كانت هناك قنبلتان جاهزتان للانفجار فوق اليابان التي تتأجج بروح المقاومة والتضحية.

في ٥ آب ١٩٤٥، صدر عن رئيس الولايات المتحدة الأمر بتنفيذ الهجوم النووي، ووصل الأمر إلى تشكيل جوي خاص وهو التشكيل ب ــ ٢٩، وكانت المجموعة المختلطة ٥٠٩ تحت إمرة العقيد بول تيبتس.

البقية معروفة جيداً. ففي ٦ آب ١٩٤٥، أسقطت قاذفة واحدة القنبلة المصنوعة من اليورانيوم والمسماة «فات مان» (الرجل البدين) فوق المدينة اليابانية هيروشيما. ولم تكن هذه القنبلة قد جربت بعد، وفي بضع

ثوان، دمرت المدينة: قتل ٧٤٠٠٠ شخص، وجرح ٨٤٠٠٠ شخص من أصل ٣٠٠٠٠٠ هم سكان المدينة.

وفي ٩ آب ١٩٤٥، دمرت مدينة ناغازاكي بدورها بقنبلة ذرية ثانية مصنوعة من البلوتونيوم وكانت تدعى: «ليتل بوي» (الولد الصغير) وأسفرت عن قتل ٤٠٠٠٠ شخص ومثل هذا العدد من الجرحى. فالمتفجر النووي، وسيلة المفاجأة التقنية الحاسمة، يضرب العدو في أعماله الحيوية من غير حاجة إلى تدمير قواته المسلحة عسكرياً، وفي ١٠ آب ١٩٤٥، قبل امبراطور اليابان استسلام امبراطوريته غير المشروط.

وهكذا وضع السلاح الذري حداً للحرب العالمية الثانية.

كانت إرادة قوات المحور والأمم المحالفة لها تواجه مفهومين متناقضين للحرب. ففي الممارسة المتطاولة للحروب النابليونية الكبيرة، كانت هذه الحروب تلجأ إلى توسيع الاستراتيجية العملياتية على نحو لم يسبق له مثيل في الزمان والمكان. ثم في آن واحد، وفي ظل مراكز البحث، كانت تصاغ استراتيجية الوسائط، التي تصنع اقتصاد الاستراتيجية العملياتية، وهكذا أيضاً، كشفت الحرب العالمية الثانية، منذ ذلك الحين، السمة الحاسمة لاستراتيجية الوسائط في المبارزة بين الأمم.

في آب ١٩٤٥، وبظهور القنبلة الذرية، دخل العالم عصر الاستراتيجية المتكاملة.

ومنذ البدء بمشروع مانهاتان في العام ١٩٤٢ تحققت ثلاث ثورات سياسية وعلمية وعسكرية اتسم بها ظهور القوة الامبريالية للولايات المتحدة.

فعلى الصعيد السياسي، يشير مشروع مانهاتان إلى ولادة الدولة الفدرالية الأمريكية الحديثة، وبمخاطرتها في هذا البحث المجهول، ووقفها الأموال الضخمة عليه، وبوضعها خطة عسكرية صارمة، أمكنها أن تتزود بسطوة وقدرة على التدخل لا مثيل لهما. لهذا وجدت رئاسة الولايات المتحدة أنّ نفوذها ومسؤوليتها قد توطدا.

والأعم من هذا، أن كل زعيم دولة تمتلك السلاح النووي، وجد نفسه منذ ذلك الحين مدعواً ليتحمل ـ وحده ـ مسؤوليات لم يسبق لها مثيل عبر التاريخ.

إن الثورة العلمية المتمثلة بمشروع مانهاتان، بإزاحتها لحواجز المعارف وزعزعتها، قد أثارت مسألة الطبقية بين الأمم المتقدمة. ولما كانت طائفة العلماء حبيسة عالم المخابر والجامعات، فقد كانت تقف وجودها على البحث النزيه، وكانت، كما هو معروف عنها، لا تهتم بالمجازفات والرهانات الاجتماعية والسياسية. وعلى حين غرة، قلبت الحرب هذا الطراز التقليدي من البحث العلمي، رأساً على عقب.

إن الطبيعة الشيطانية للنازية المرتبطة بتهديدات هتلر بامتلاك القنبلة النووية، هي التي دفعت العلماء إلى خوض هذه المعركة. كما أن هجرة عدد

من أفضل أدمغة الثقافة الأوروبية من ألمانيا وأوروبا الشرقية إلى الولايات المتحدة، كانت حدثاً نجمت عنه نتائج جسام. فقد تحول هذا الإبعاد والنفي الهتلري إلى تكوين جماعات من المربين (المعلمين) لأعلى السلطات السياسية، التي كانوا يعلمونها التطبيقات العسكرية للطاقة النووية بعد السيطرة عليها.

لقد أُبعد هؤلاء العلماء، لأنهم غرباء، عن أعمال البحث المتعلقة بالرادار وأسلحة الحرب العملياتية الأخرى، فانخرطوا في العمل ببرنامج مانهاتان، الذي صنع في أقل من خمس سنوات، السلاح الذي فاق جميع الأسلحة. وقلب بالمزاوجة بين السياسة والعلم، الطرائق التقليدية للحرب. كما أن العلماء المتصلين بالسلطة السياسية اتصالاً وثيقاً، كانوا يقوّمون نتيجة بحوثهم، فتجنيدهم تحت إمرة الجنرال غروفس أدى بهم إلى تقريب علومهم بعضها من بعض، وإلى مواجهة نتائجها بعضها ببعض، فقد كان التعاون متبادلاً بين فاعلية استراتيجية الوسائط وقدرة الدولة كحافز للقوى الثقافية والتكنولوجية. وكانت حيوية (دينامية) التجديد تزداد، بينما كان مستوى الأمة الثقافي والإنتاجي يرتفع.

إن مشروع مانهاتان، بتشجيعه البحث في العديد من العلوم، قد عجل في ولادة العلوم الالكترونية وفي التقنية الإعلامية (الانفورماتيك) التي قلبت أوضاع العالم بعد العام ١٩٤٥.

أما أعمال باحثي معهد ماساشوسيت للتكنولوجيا، مثل:

جي. فون نيومان، ن. ب. كانون، ن. ورنرت، آ. روزنبلوث، ف. بوش، سي. اي. شانون، واي. دبليو. لي، فقد أسهمت في إعداد الأسلحة النووية الأولى، بإدخالها إليها مساهمات الالكترونيات والانفورماتيك ودعمها لها. وكذلك أتاحت صناعة الحواسب الآلية الرقمية معالجة المسائل التي يصعب حلها بالطرائق التقليدية بسرعة. كما سهلت هذه الحواسب الآلية البحث العملياتي والإدارة. وأول آلة حاسبة الكترونية وتدعى (انياك) صنعت في العام ١٩٤٦، وجاءت نتيجة للاندفاع الذي أحدثه برنامج مانهاتان، وكانت تزن ٣٠ طناً، وتشغل مساحة ١٤٠ متراً مربعاً، وتضم ١٨٠٠٠ حبابة مفرغة تتصل بعضها ببعض بأسلاك يبلغ طولها نحو ١٠ كم. لقد فتحت استراتيجية الوسائط عهد الفكر الاصطناعي. كما أن الانتقال من الحبابات المفرغة إلى أشباه الموصلات. والمزاوجة على الخرائط بدارات مطبوعة، ثم ابتكار (البراغيث) ـ وهي أجهزة مفرطة في الصغر ـ عملت جميعاً على تغيير تكنولوجيا الأسلحة وتكنولوجيا القوى المنتجة ابتداء من مانهاتان.

بدءاً من العام ١٩٥٠، ازداد عدد العلماء في العالم عما كان عليه في أثناء الفترة التاريخية السابقة كلها. فقد أصبحت الولايات المتحدة منذ العام ١٩٤٢، قطب تطوير بعض أشكال التحديث والتقدم التكنولوجي الجديدة. وقدمت المثال عن الدولة ـ الأمة الجديدة، عاملة على التوحيد بين السلطة والعلم والجهاز الإنتاجي توحيداً وثيقاً. إنها المواجهة بين أنظمة

وأجهزة شاملة، والدولة تحقق لها الترابط الذي يقرر منذ ذلك الحين الموقع الذي تتخذه الأمة بين مراتب الأمم الأخرى ويحدد تصنيفها.

أخيراً، حقق مانهاتان ثورة في الاستراتيجية العسكرية، التي تشرك العلم في الإعداد للعمليات العسكرية بينما تحدد قوى العلم الكائنة والكامنة فاعلية استراتيجية الوسائط.

إن السباق لتحقيق المفاجأة التقنية إبان الحرب العالمية الثانية، قاد كل معسكر إلى السعي لتدمير القدرة العلمية المعادية بعمليات عسكرية واسعة.

تتجه حرب الاستخبارات نحو أنشطة البحث والدراسة والمناورات العملياتية الحليفة، وهي منذ العام ١٩٤٣ تستهدف المنشآت الأكثر سرية والأكثر حيوية في القدرة المعادية.

إن هجمات سلاح الجو الملكي (البريطاني) على بينموند، قد أخّرت خروج الصواريخ ف ١، ف ٢ أكثر من ستة أشهر من مصنعها.

لقد كتب ايزنهاور في (مذكراته) ما يلي: «أنا متأكد أن الألماني لو نجح في استخدام هذه الأسلحة خلال فترة ستة أشهر، ولا سيما إذا استطاع أن يجعل منطقة بورتسماوث ــ ساوثامبتون من أهدافه الأساسية، لكان مصير اوفرلورد الزوال من الوجود».

أما العلماء المعادون ومراكز البحث، فقد أصبحوا أهدافاً لها الأولوية.

لذا قررت لندن وواشنطن ضرب المناطق السكنية المعادية التي يعيش فيها العديد من العلماء والفنيين، ثم مع تدمير الرايخ الثالث، تبدت منافسة من نوع جديد بين الحلفاء.

فعند التغلغل في الأراضي الألمانية، اكتشف المنتصرون المصانع الألمانية المشيدة تحت الأرض، وما فيها من قدرات علمية وتكنولوجية لا تصدق. ولقد حلّ المنتصرون رموز الابتكارات التي يحقق بعضها ثورة في علم الطيران وفي بناء الغواصات. واستولى الحلفاء على غنيمة الحرب التي أصبحت تمثل، ابتداء من ذلك الوقت، العلماء والفنيين والوثائق العلمية والمنشآت الصناعية.

في نهاية العام ١٩٤٤، صدر مرسوم عن الكرملين يأمر بعض قوات الكوماندوز الخاصة بجمع كل عتاد عسكري أو علمي في ألمانيا يفيد الاتحاد السوفييتي. وفي تشرين الأول ١٩٤٥، أخذ ستالين أكثر من ٥٠٠٠ عالم ومهندس، ونقل إلى الاتحاد السوفييتي مصانع كاملة.

أما الولايات المتحدة، فقد اختارت الاكتشافات التي بدت لها ذات فائدة استراتيجية اختياراً دقيقاً. وكانت تبحث عن المسؤولين الأساسيين في قاعدة الصواريخ في بينموند بحثاً منهجياً. وبعد استسلام هؤلاء المسؤولين، ومنهم الجنرال والتر دورنبيرجر، وويرنر فون براون، تغلغل الأمريكيون مذهولين في مصانع إنتاج الصواريخ ف ٢، المخبأة تحت جبال هارز في بوردهوسن، ووصلوا إلى ميادين من البحث لم يكونوا يتوقعونها، تختص

بدراسة صواريخ بالستيكية عابرة للقارات، وأقمار صناعية، ومرايا لاقطة موضوعة في الفضاء الكوني.

وفي العام ١٩٤٦، استقبلت الولايات المتحدة على أراضيها فون براون وجماعته المؤلفة من ١٢٧ اختصاصياً مع أطنان من الوثائق العلمية.

غير أن توقف الحرب، لم يوقف اندفاع استراتيجية الوسائط التي دخلت عصر القنبلة الذرية.



الاستراتيجية المتكاملة



تجديد الاستراتيجية المتكاملة

دخل العالم زمن الاستراتيجية المتكاملة بعد التفجيرين النوويين في آب ١٩٤٥ فوق اليابان. ويرى معظم العسكريين، أن القنبلة الذرية تظل مقتصرة على متفجر شأنه شأن المتفجرات الأخرى. غير أن قوة طاقتها تبدو، ببساطة، متفوقة. وقد استطاع الاميرال كاستكس، بوصفه الاستراتيجي الفذ، إدراك السمة المجددة لسلاح مانهاتان، فتنبأ في مجلة الدفاع الوطني الفرنسية عدد تشرين الأول ١٩٤٥، بما سينجم عن هذا السلاح من اضطرابات في العلاقات بين الدول التي سيسودها القهر والإكراه. وتنبأ بأن الاحتكار النووي الأمريكي لن يكون إلا مؤقتاً. وقد أدى توقف الحرب العالمية إلى بدء مرحلة جديدة تتصف بانتشار السلاح النووي. فبعد العام ١٩٤٥، أصبح تاريخ السلاح النووي، مثل تاريخ باندور[1] وعلبتها.

---

(١) باندور: هي المرأة الأولى، حسب الأساطير اليونانية. وأدى بها فضولها إلى فتح ←

حطم الاتحاد السوفييتي في العام ١٩٤٩ الاحتكار الذري الأمريكيّ، ثم خضع هذا الاحتكار الثنائي للدولتين العظميين لتصاعد قوة (المشاغبين النوويين) حسب تعبير الجنرال غالوا[٢].

تعقدت قواعد اللعبة بعد ظهور هذا العدد المتزايد من القوى الساعية نحو الذرة، وبعد تطور النظريات، غير أن عنصراً أساسياً فرض نفسه على الجميع وهو عنصر هام جداً يعد مرجعاً، بصرف النظر عن إرادة الدول السياسية (إنه عنصر التجديد).

ففي كتاب (استراتيجيات نووية)[٣] يوضح مؤلفه لوسيان بوارييه سبب التجديد قائلاً: «بعد العام ١٩٤٥، أدرك الناس أن سلاح التدمير المكثف هو السلاح الحاسم، وهذا التأويل يكفي ليكون هذا السلاح هو الذي تفكر فيه الاستراتيجية العسكرية من الآن فصاعداً، وفيه وحده. وعن طريق العدوى، على السياسة العامة أن تخضع لهذه الثوابت: فهي لم تعد حرة في خياراتها من الآن فصاعداً».

العلبة التي حبس فيها الإله زيوس الشرور البشرية، فانتشرت منها جميع الشرور والرزايا وعمت البشر، ولم يبق فيها غير الأمل.

(٢) استراتيجي فرنسي.

(٣) لوسيان بوارييه «استراتيجيات نووية «هاشيت»»، «بحوث»، ١٩٧٧.

في عصر المعارك التقليدية، كان قرار إشعال فتيل الحرب يبقى ذا نتيجة مشكوك فيها.

أما في عصر الاستراتيجية المتكاملة، فقد حظّر خطر تدمير العالم، على الدول النووية كافة، اللجوء إلى الحرب النووية المباشرة، وأدى تقدير كل معتد متوقع للخطر الناجم عن عدوانه (قبل) إشعاله فتيل الحرب، إلى وضع أسس مسلّمة الردع.

إن غاية الأسلحة النووية، ليست كما كان يجري في عصر المعارك التقليدية، أي أن تستخدم في مواجهة حقيقية ومباشرة. بل غايتها لدى كل دولة نووية، تقوم على تثبيط همة أية دولة نووية أخرى تفكر في المبادرة بالعدوان النووي. وذلكُ بحيازة قوات رد انتقامية ومنيعة، بحيث تجعل من العبث الإقدام على أي اعتداء (تكتيك بقاء الردع). فبين الدول النووية إذاً، يجري امتحان المواجهة أساساً، عبر المجابهة بين استراتيجيات الوسائط، في كل من هذه الدول.

على كل دولة نووية أن تتوقع، للمدى البعيد، تطور القدرات التكنولوجية للقوات المعادية ومميزاتها وتصوراتها في استخدام أسلحتها، وذلك بغية تفوقها على هذه القوات المعادية. فكل دولة منها تخشى على الدوام أن تفاجأ بهجمة تقنية قد يكون من نتائجها فقدان استقلالها، بل حتى أن يكون ضمان بقائها من المحال. إن البحث عن هامش الأمن الذي لا بد منه لحماية الأراضي الوطنية وسلامتها، يثمن استراتيجية الوسائط التي تسيرها

الاستراتيجية العسكرية العامة[٤]. وهذه الأخيرة تنظم مناورة البحث وتطوير الأسلحة وقوات العنف المادي لأمد بعيد. إن التخطيط الاستراتيجي الحقيقي المبرمج لعقد أو عقدين من الزمن، عليه أن يستبعد إمكان إخفاق الردع. والسياسة العامة الخاضعة للأهداف الوطنية (الهدف السياسي) قد تتبدى في ميدان النزاع الذي تمتحن فيه الإرادات المتضادة. وهي التي تصون المصالح الوطنية، وتحول دون أي إمكان للعدوان، وتتزود بوسائط القوة بتطويرها لقدرات العمل. فالسياسة تحصر خياراتها ضمن حدود الضغوط التي تفرضها القنبلة النووية، بينما تخرج الاستراتيجية ذاتها من مجال الحرب لتتحول إلى (استراتيجية متكاملة)، وهي، حسب تعبير لوسيان بوارييه: «التي توحد الاستراتيجيات العامة والاقتصادية والثقافية والعسكرية وقوى هذه الاستراتيجيات المتغايرة، وتضعها في خدمة البرنامج السياسي في زمني السلم والحرب».

عدّل ظهور الاستراتيجية المتكاملة مجال القرار السياسي. فقد جددت مفهوم سيادة الدول، وغيرت الإحساس تجاه هذه الفترة التاريخية، كما غيرت طبيعة العلاقات الدولية، كذلك عدّلت الاستراتيجية المتكاملة قواعد سيادة الدول في المقام الأول.

---

(٤) الاستراتيجية العسكرية العامة توحد مجموع المسائل التي تطرحها قوات العنف المادي.

أما السلاح الذري فقد قطع العلاقة القائمة بين القدرة والكتلة العددية. ذلك أن قدرة نيرانه التي لا حد لها، تتمتع بحركية شاملة ويمكن لها الانطلاق في مدة يزداد تقلصها أكثر فأكثر. وعلى الرغم من التحسين المستمر لأنظمة الكشف والمراقبة، والدفاع، فإن اعتداءً نووياً قد يولد تأثير المفاجأة. وهذه المفاجأة تمنح التفوق للمعتدي. من دون أن يتمكن البلد الذي وقع عليه الهجوم من تعبئة جيوشه، على غرار الحروب التقليدية الماضية. وهكذا أصبحت حيازة السلاح النووي تجزئ المجال الدولي جذرياً. أما الأمم التي يحمي حرمة أراضيها امتلاكها القوات النووية، فتتمتع بأشكال جديدة من القدرة الاستراتيجية. فهي أولاً، المقدرة، التي تعبر عنها الإرادة السياسية لردع كل معتد، ثم الدفاع عن مصالحها بوساطة استراتيجيات العمل العسكري المتنوع المتمم للردع. إن أعمال الإكراه والقسر بوساطة الضغوط الايديولوجية والنفسية، من دون اللجوء إلى استخدام القوات العسكرية استخداماً مباشراً، يمكنها إلحاق الضرر، أو إضعاف القدرة على المقاومة السياسية لدى البلدان المستهدفة.

إن الأمم التي لا يمكنها حماية حرمة أراضيها تصبح أرضية خصبة لتنافس القوى النووية. ولكونها تصبح مجالاً للمزاحمة، فلا يمكنها سوى القبول بانتهاء حصانة أراضيها، وانتهاء ممارسة سيادتها على استقلالها. وهكذا نجد أن أزمة السويس، بالنسبة لفرنسا، قد انتهت بأمر من الدولتين

العظميين. وكردة فعل، قررت فرنسا، رافضة أن تفقد استقلالها، أن تتزود بقوة ردع نووية.

أما الأمم التي يمكنها حماية حرمة أراضيها فتتميز باستخدام استراتيجية متكاملة، وتحدد سيادتها من خلال إرادتها الدفاع عن مصالحها الحيوية، التي تختلط بسلامة أراضيها الوطنية كافة.

في المقام الثاني، تبدل الاستراتيجية المتكاملة الفترة التاريخية.

فقبل العام ١٩٣٩، في عصر المعارك التقليدية، كانت الحرب تتأكد كملجأ وحيد للسياسة عندما تعصف أزمة ما بالنظام الدولي، والقنبلة الذرية، من خلال قاعدة اللعبة السياسية ــ الاستراتيجية التي وطدت أركانها، والتي تعني ردع القوي للقوي، أو الضعيف للقوي، قد غيرت القدرة على الإحساس، في زمن السلم وفي زمن الحرب، تغييراً جذرياً. وهي أن القنبلة الذرية، بما أثارته من ذعر، قد رسخت وضعاً من (اللاحرب) المباشرة. والمفارقة الناجمة عن هذا تترجم بزيادة أنشطة الاستراتيجيات غير المباشرة، والتدخلات المدعومة بقوات عسكرية تقليدية. كما تترجم بزيادة القدرات على المناورات الدبلوماسية.

وما دامت السبل المباشرة للتسوية العسكرية لا يمكن السيطرة عليها أو التحكم بها، ما عدا التنافس الجاري في مضمار استراتيجية الوسائط،

فإن اعتداء الدول العظمى يتجه نحو مجالات جغرافية سياسية لا تحميها مناعة القنبلة الذرية.

إن فترة تاريخية من التوتر الدائم قد انبثقت عن حلول الخطر النووي.

ولما كانت هذه الفترة مختلفة عن ظروف السلم والحرب، ما قبل العام ١٩٣٩، فإنها غيرت العلاقات بين العنف والسياسة، وأصبح السلم أزمة دائمة. ويرى الجنرال بوارييه، أن الأزمة تمثل: «أعلى مستويات العنف» وهذا مسموح بين الدول العظمى، ثم إن هذه الأزمة تمارس (وظيفة حاسمة)[٥]. يرى الجنرال بوفر في هذا الوضع وضعاً هجيناً من (السلام ــ الحرب)، ذلك أن الأزمة تحدد صيغة استراتيجية جديدة للعمل المسمى (زمن التحمية).

في المجالات التي تصون حرمتها القنبلة الذرية، وهي مناطق مصالح حيوية، فإن عدوانية الدول العظمى يحرضها تنافس استراتيجيات الوسائط لدى هذه الدول.

وفي المجالات التي لا تصون حرمتها قنبلة ذرية، ولا يغطيها الردع النووي، تبرز مناطق توتر وعدوان خاضعة لمدى حدة التنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، لأن هذه المناطق تكون (المخارج) أو المنافذ

---

(٥) لوسيان بوارييه، «استراتيجيات نووية» ص ٢١٤.

التي تتجابه من خلالها مصالح الدول العظمى المتنافسة، كالمنافسات بين القوى المحلية تماماً.

عند حدود المجالات المحرمة (المحمية بالسلاح النووي)، تصبح هذه المناطق المتصارعة مسرح النزاعات المحدودة، والاستراتيجيات المحدودة، والاستراتيجيات غير المباشرة المستثارة. وفي أربعة عقود من الزمن، نشبت ١٣٠ حرباً محلية، وأسفرت عن أكثر من ١٠ ملايين قتيل.

وبين مناطق المصالح الحيوية المحرّمة، وسائر العالم، يتوطد فرق جوهري.

ولما كانت الاستراتيجية المتكاملة تسيطر على مجموع استراتيجيات الردع والعمل العسكري، فقد اندفعت وانطلقت عند فجر العصر الذري.

من مانهاتان إلى أبولو

في اليوم الأخير من مؤتمر بوتسدام، أخبر رئيس الولايات المتحدة هاري ترومان، ستالين بوجود القنبلة الذرية. وكتب في (مذكراته) في ٢٤ تموز ما يلي: «ذكرت سريعاً لستالين أننا نملك سلاحاً جديداً له قوة تدميريه غير اعتيادية. ولم يُبدِ زعيم الدولة السوفييتية أية ملاحظة خاصة تدل على الاهتمام. بل قال فقط إنه مسرور لإعلامه بذلك ويأمل أن نحسن استخدامه ضد اليابان».

السنوات القليلة الفاصلة بين العامين ١٩٤٥ و١٩٥٠، كانت تتصف بسيطرة الولايات المتحدة على الكرة الأرضية، فقد احتلت أمريكا أوروبا الغربية واليابان. وكانت تتمتع بتفوق استراتيجي مطلق أكسبها إياه الاحتكار النووي. وكانت أمريكا قوية بقواعد قاذفاتها التابعة لقيادة القوى الجوية الاستراتيجية التي تحاصر الاتحاد السوفييتي كالطوق بالقنابل النووية

الحرارية وبغواصاتها النووية الأولى. وكانت تفرض قاعدة اللعبة الجديدة على حلفائها وعلى خصمها الاتحاد السوفييتي.

قدَّر ستالين منذ مانهاتان، مدى العناصر الجديدة في القوة الأمريكية، ولأنه يريد تثبيت تفوق الشيوعية ضمن إطار روسيا العظمى، كان ينبغي له أن يحسب سبل خطته ووسائل تحقيقها.

أراد زعماء الاتحاد السوفييتي، وهم ينطلقون من وضعهم المتخلف، بالمقارنة بأمريكا، أن يحدثوا، بوساطة بعض التجديدات في الاستراتيجية العسكرية العامة، المفاجأة بتقنية تفتح الطريق الأوسع والأكبر للاستراتيجية المتكاملة الكبرى.

لقد استندوا إلى تقاليد البحث الذي يجريه بلدهم في مجال الصواريخ، فأفادوا من المعارف التكنولوجية للصاروخ الألماني ف ٢، وجمعوا للمرة الأولى بين القنبلة والصاروخ، فأحدثوا، دفعة واحدة، ثورة على صعيد استراتيجية الوسائط.

عوض التجديد البالستيكي ـــ النووي عن التخلف العسكري السوفييتي، ووضع الاتحاد السوفييتي في موقع التكافؤ مع الولايات المتحدة. وهكذا أدى هذا التجديد إلى انتقال المواجهة الأمريكية ـــ السوفييتية إلى غزو الفضاء الكوني.

استغل الاتحاد السوفييتي بمهارة تامة، جميع عناصر الاستراتيجية

النووية التي كانت لا تزال تتعثر، ليحولها إلى أوراق سوفييتية رابحة.

فبانتظار الحصول على القنبلة الذرية أولاً، قام ستالين بمناورة واسعة غير مباشرة، مستغلاً الذعر النووي أمام الرأي العام العالمي، لنسف القدرة الأمريكية، ثم قام بعد ذلك بمناورتين تقنيتين واسعتين جداً، وضعتا الاتحاد السوفييتي في عصر الاستراتيجية المتكاملة.

فقد ابتدأ بوضع برنامج، لمدة عقد من الزمن، لبناء صواريخ بعيدة المدى جداً، ولما كان يرى أن أمريكا هي (العدو المتوقع) الذي يجب التمكن من النيل منه، أعلن في ٢٦ آب ١٩٥٦ نجاح أول طيران لصاروخ عابر للقارات.

برهن ستالين، في المقام الثاني، على أن بلاده يمكن أن تصنع في فترات متسارعة، القنبلة الذرية (٢٩ آب ١٩٤٩)، ثم القنبلة النووية الحرارية المنمنمة (١٢ آب ١٩٥٣) التي يمكن للصاروخ أن يحملها.

ثم في ٤ تشرين الأول ١٩٥٧، انتشر خبر أدهش العالم: لقد أطلق الاتحاد السوفييتي قمراً صناعياً إلى الفضاء، سبوتنيك ١، الذي يدور حول الأرض على ارتفاع ٩٠٠ كم. وبدا الأثر النفسي الناجم كبيراً جداً. فقد هتفت الإذاعة السوفييتية قائلة: «المجد لعلمائنا، المجد لحزبنا الشيوعي الذي يقودنا من نصر إلى نصر!». كان هذا القمر، على ما يلوح، بديلاً للسلاح العسكري الحاسم، فقد تجاوز القمر الصناعي، دفعة واحدة، تشكيلة الأسلحة النووية الأمريكية وتفوق عليها. وفي ٨ تشرين الأول ١٩٥٧، أعلن

السكرتير الأول للحزب الشيوعي السوفييتي في خطاب تبدت فيه القوة واضحة قائلاً: «الصواريخ أسلحة رهيبة لا ترحم وتفرض مسؤوليات جساماً على من هي بحوزته».

يورد فرديناند فوش في كتابه (مبادئ الحرب) مقطعاً من الحوار الشهير في كتاب (أمسيات سان ـــ بترسبورغ) لجوزيف دو ميستر. رداً على سؤال: «ما هي المعركة الخاسرة؟» يجيب أحد الجنرالات باضطراب شديد في البداية قائلاً: «لا أدري»، ثم يقول: «إنها معركة يعتقد المرء أنه قد خسرها، لأن المعركة لا تخسر مادياً» ويواصل فوش قائلاً: «إذن خسارة المعركة خسارة معنوية»[٦].

قبل ذلك بقليل، كان الاستراتيجي اردانت دوبيك قد أورد في كتابه (دراسات في القتال) الملاحظة التالية: «عندما تتساوى القوتان، حتى لو كانت إحداهما أدنى من الأخرى، فالغلبة لمن يعرف السير نحو الأمام بعزم وإصرار... ولنقل باختصار، إنها سيطرة التأثير المعنوي. فالتأثير المغنوي هو الإيحاء بالخوف، والذي يجب تحويله إلى ذعر لفرض السيطرة. فالمناورات تهديدات، وأقواها التي تفرض سيطرتها»[٧].

---

(٦) فرديناند فوش «مبادئ الحرب»، بيرجير ـــ ليفرولت ١٩١١، ص ٥.

(٧) شارل اردانت دوبيك «دراسات في القتال» بيرجير ـــ ليفرولت، ١٩٤٨، صفحة ١٠٠.

إن الاتحاد السوفييتي ، بإحداثه المفاجأة ، فرض على الولايات المتحدة الدليل على قدرته الفضائية ، والبالستيكية والنووية : إنها لحظة تاريخية حاسمة اتسمت بأزمة السويس وبظهور قدرات موسكو وواشنطن على التحكم في العالم .

نجاح سبوتنيك ١ ، الذي تبعه إطلاق أقمار أخرى في الفضاء الخارجي ، أكد انطلاق الاستراتيجية السوفييتية المتكاملة . وأصبح الفضاء معيار التفوق العلمي .

ولما كانت أية مواجهة عسكرية مباشرة تبدو من المحال ، فإن الاتحاد السوفييتي ، بدوره ، أعد قاعدة جديدة للعبة .

بعد استغلال حجة الذعر النووي ، انتقلت موسكو إلى الهجوم مستخدمة الفضاء ، فقد طورت استراتيجية قسرية معقدة تندمج في استراتيجيتها المتكاملة . وبوساطة التكنولوجيا الفضائية ، مارست ضغطاً على الرأي العالمي ، ومنحت وسائط الإعلام ، وهي أرضية التأثير العملياتي ، هذه التكنولوجيا ، على المستوى العالمي ، وسائط التأثير النفسي في الأذهان .

أخيراً ، بعد أن أثر الاتحاد السوفييتي في الرأي العام الأمريكي ، بدأ يؤثر تأثيراً غير مباشر في قرارات الحكومات ففي ١٢ نيسان ١٩٦١ ، عندما أطلقت موسكو ، مدة ١٠٨ دقائق ، أول إنسان إلى الفضاء ، وهو رائد الفضاء يوري غاغارين ، أكدت نجاحها الشامل . وفي الولايات المتحدة ، كان الرأي العام المتزعزع نفسياً ، يشك في إمكان استخدام هذه

التشكيلة من الأسلحة الأمريكية. وشعر الجيش بأن حرمة أراضيه قد فقدت مناعتها. ووسائل الإعلام شنت حملة واسعة على السلطة التنفيذية الأمريكية التي تزعزعت الثقة فيها.

في الانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني ١٩٦٠، انتخب الأمريكيون الديمقراطي جون كنيدي، بعد أن أعيتهم سياسة ايزنهاور، ووقفوا موقف العداء من جميع حكومات الحزب الجمهوري المتعاقبة. وبتركيز كنيدي في أثناء حملته الانتخابية على التحدي الفضائي تمكن من الفوز على ريتشارد نيكسون.

إن الرئيس الجديد، والحق يقال، كان يبدو قليل الاقتناع بالانطلاق ببلاده إلى فتح الفضاء. غير أن إخفاق الإنزال في خليج الخنازير الموجه إلى نظام الحكم الموالي لكاسترو، في ١٢ نيسان ١٩٦١ أرغمه على إعادة النظر بسياسته. ولكي يكسب الرأي العام ويعبئه، ويعيد الثقة، ويرفع اسم أمريكا في العالم، كان عليه أن يجد (جبهة جديدة) وهذه الجبهة هي الفضاء.

في ٢٥ أيار ١٩٦١، أبلغ كنيدي الكونغرس بعزمه على إرسال أشخاص إلى القمر: «آن الأوان من الآن فصاعداً، للدخول ثانية في مشروع أمريكي ضخم، ولتسلم موقع الريادة في ميادين النشاط الفضائي، فهي على الأرض مفاتيح المستقبل... وهذا ليس سباقاً فحسب. بل علينا المضي في الفضاء لأن على الناس الأحرار المساهمة، بلا تحفظ، في إنجازات

الإنسانية كلها. ومن واجب أمتنا أن تلتزم بإنزال رجل على القمر وإعادته إلى الأرض سليماً معافى، قبل نهاية هذا العقد من الزمن».

هكذا كان الرئيس كنيدي، بدوره، ينوي تجاوز الاتحاد السوفييتي، بإدراجه برنامج أبولو الجديد لغزو القمر ضمن استراتيجيته المتكاملة.

تحت تصرف الولايات المتحدة، في الواقع، قدرات ضخمة على البحث في الملاحة الفضائية، فقد بدأ روبير غودار، أستاذ الفيزياء، البحوث على الدفع بوساطة الصواريخ منذ العام ١٩١٠. وفي ١٦ آذار ١٩٢٦، أطلق أول صاروخ يعمل بالوقود السائل، غير أنه اصطدم باللامبالاة التي أبداها العلماء والعسكريون.

في العام ١٩٤٦، بعد أن استقبلت الولايات المتحدة العلماء الألمان القادمين من مدينة بينموند، اختبرت مع ويرنر فون براون صاروخاً جديداً طراز ف ٢. وكانت البحرية ترغب في استئناف مهامها في الفضاء الخارجي وتقترح برنامجاً لصناعة الأقمار الصناعية، أما القوات البرية فكانت تتوجه بأبحاثها نحو المركبات والأسلحة الفضائية، أخيراً، واصلت مجموعة من الباحثين الشباب في معهد التكنولوجيا بكاليفورنيا دراسات غودار، فصنعت صاروخاً تكتيكياً هو الصاروخ كابورال.

ابتداء من المستوى التقني للصاروخ ف ٢، درست المجموعة المذكورة مشروع صاروخ بعيد المدى في العام ١٩٤٦. وكان ثمة مهندس

شاب من أصل بلجيكي، يدعى كارل بوسّارت، وهو منَ أعضاء مجموعة البحث، قد حقق قفزة هامة على طريق تكنولوجيا صناعة الصواريخ. فقد توصل إلى تخفيف وزن الصواريخ، وتوصل إلى جعل الصاروخ يطير في مساره بوساطة توجيه مجموعة المحرك الصاروخي.

في أيار ١٩٤٦، أعدت وزارة الحربية بالاستعانة بوساطة هيئة للاستشارة العلمية هي (راند كوربوريشن) أعدت تقريراً يطالب بإنجاز القمر الصناعي الأول القادر على أن يعقب مشروع مانهاتان، وهذا يدل على بعد النظر: «فالأمة التي تنجز الإطلاقات الفضائية الأولى، ستعد حائزة على التفوق العسكري والعلمي والتقني. ولإدراك تأثير الحدث، حسبنا أن نتصور الذهول الذي قد تشعر به الولايات المتحدة إذا ما نجحت دولة أخرى بإطلاق قمر صناعي».

لم يحدث اقتــراح رانــد كوربــوريشن أي صدى في أوساط الاستراتيجيين الأمريكيين. فقد كانت الترسانة النووية الأمريكية تبدو لهم متمتعة بتقدم لا يستهان به. فالقواعد الخارجية والقاذفات التابعة لقيادة القوى الجوية الاستراتيجية الكثيرة العدد، تكفي الولايات المتحدة لممارسة قدرتها العسكرية. وكذلك ظلت البحوث بشأن الصواريخ والفضاء في حالة يقظة، وأثارت القليل من الاهتمام في البنتاغون.

وقد أبعد فون براون ومساعدوه إلى إحدى ترسانات الجيش، في

هونستفيل في ولاية الاباما، واقتصر عملهم على صناعة صاروخ يبلغ مداه ٣٠٠ كم، وهو الصاروخ رودستون.

في العام ١٩٥٣، نجحت تجارب الاتحاد السوفييتي في صناعة قنبلة نووية منمنمة، وهذا النجاح أثار صدمة لدى المسؤولين الأمريكيين. وثبت فجأة أن بحوث الصواريخ الاستراتيجية يجب أن تنال الأولوية في الدفاع الأمريكي الذي ينوي الاحتفاظ بتقدمه. ولهذا اتخذ قرار بتطوير أربعة برامج من الصواريخ اثنان منها، أطلس وتيتان، فعابران للقارات، والآخران متوسطا المدى هما تور وجوبيتر.

لم يتأثر الرئيس ايزنهاور بالنجاح الذي حققه سبوتنيك. ولما كان قوياً بآراء خبرائه العلميين، فقد قدّر أن التجديد السوفييتي لا يهدد القوة الاستراتيجية الأمريكية، التي كان يتخيلها أكثر كمالاً، فأراد أن يحتوي بلباقة (الموجة الهستيرية) التي أثارها سبوتنيك. وقد تجاهل، بلا شك، المناورة العملياتية النفسية التي قادها نيكيتاخروتشوف عبر وسائل الإعلام.

لقد أساء رئيس الولايات المتحدة تقدير الدور الجديد الذي يقع على عاتق رئيس الدولة، بوصفه رئيس دولة نووية. ولما كان يثق بالمصداقية التقنية للقوة الذرية الأمريكية، ويخلص إلى المفهوم الليبرالي عن دور الولايات المتحدة، فقد غاب عن باله، أن عليه، من الآن فصاعداً، أن يعرف كيف يلاحم، في زمن التحمية كما في زمن الحرب، بين الأمة ودولتها وقائدها الأعلى. ولم يكن كبار المسؤولين الأمريكيين قد ربطوا المصداقية السياسية

بالمصداقية التقنية في القوات الأمريكية، كما أن دور الدولة العصرية المثير للحماسة لم يدمجوه في برنامج ضخم يوازي برنامج مانهاتان، وهو مشروع فريد من نوعه في نظرهم.

رفض الرئيس ايزنهاور تسريع المنافسة العسكرية باستخدام استراتيجية الوسائط، فقد كان لا يثق بضغوط الأداة (العسكرية ــ الصناعية)، التي ترغب في طرح مشروع هجومي ضخم من الصواريخ التي لا يمكن اعتراضها. ولما كان الجنرال غافان مقتنعاً بضرورة تعزيز الردع الأمريكي تعزيزاً كبيراً، فقد قدم استقالته.

اكتفى رئيس السلطة التنفيذية بتطوير تكتيك (مضاد للمفاجأة) تابع لقيادة القوى الجوية الاستراتيجية، وبتغطية الولايات المتحدة بدفاع جوي.

واكتفى الرئيس الأمريكي بالإبقاء على الاتصال السياسي ــ الاستراتيجي بالاتحاد السوفييتي لتدارك الأخطار. وضمن إطار هذه الإدارة الرشيدة، قبل برنامجاً محدوداً قصير الأمد، لصناعة الأقمار الصناعية اكسبلورر، أضيف إلى برنامج القوات الجوية التي شرعت في صناعة أقمار صناعية للمراقبة لحساب وكالة المخابرات المركزية.

أخيراً، في ٢٩ تموز ١٩٥٨، أسس الرئيس الأمريكي وكالة ناسا (الوكالة الوطنية لعلم الطيران والفضاء) بعد القرار السياسي بالفصل بين البحث الفضائي وميادين النشاط العسكري. ومن مهام الناسا البحث في

جوانب نشاط الفضاء المدني ومظاهره كافة. أما مهمة الدفاع، فهي في إجراء الاختبارات، التي تشرف على برامجها وكالة البحث في المشاريع المتقدمة (آربا).

عندما آلت رئاسة الولايات المتحدة إلى جون كنيدي، كانت قد جهزت بعض المنشآت الفضائية القوية التي انتهى بناؤها. ففي كاليفورنيا شيدت القوى الجوية قاعدة فضائية في فاندنبرغ، بالقرب من لوس أنجلوس، لإطلاق الأقمار الصناعية التجسسية.

أقيمت في هاواي، وفوق قاعدة هيكام، منشآت إضافية تستقبل الكبسولات العائدة من الفضاء، وفي فلوريدا، في مركز كاب كانا فيرال، تجرى التجارب المدنية بوتيرة تزداد ثباتاً أكثر فأكثر. وفي هيوستن (تكساس) شيّد مركز لتجارب السفن الفضائية التي يقودها طيارون. وإجمالاً، كان هناك أكثر من ٤٠٠٠٠ شخص يساهمون مباشرة في ميادين النشاط الفضائية الأمريكية. يضاف إلى هذا الرقم مجموعات البحوث الجامعية المرتبطة بعقد مع وكالة ناسا، كما كان هناك أيضاً مشاريع الطيران الأمريكية.

ترأس هؤلاء العاملين علماء مشهورون، مثل ويرنهر فون براون، وجيمس ويب، وهم من مديري وكالة ناسا، وجيروم ويسنر رئيس المجلس الاستشاري في العلوم، وهو موضوع مباشرة تحت إمرة جون كنيدي، وعلى اتصال مباشر به.

إزاء أزمة مزدوجة، تتسم خارجياً بالتوتر في برلين في آب ١٩٦١، وداخلياً بالكبت العميق للرأي العام وللمسؤولين الأمريكيين، وجد الرئيس كنيدي نفسه مضطراً لتحديد استراتيجية متكاملة أمريكية جديدة. وكان هدفه يتضمن تجديد أولية القوة الأمريكية في العالم. وللتوصل إلى هذا، كان عليه وضع طرائق مجددة للإدارة الحكومية تستند إلى الدافع الوطني الذي يوحي، في زمن التحمية، بروابط شبه عائلية بين الأمة وقواتها العسكرية والتكنولوجية، التي يمثلها زعيم شاب وحيوي وهو الرئيس جون كنيدي.

تستند الاستراتيجية المتكاملة الجديدة إلى أربع مناورات أساسية وإضافية. ثلاث منها تتعلق مباشرة بتوسيع استراتيجية الوسائط، والرابعة عليها أن تصنع، بوساطة مناورة نفسية، صورة الدولة الفاتحة أمريكا، ويهدف مجموع هذه المناورات إلى إعادة الهيبة الأمريكية، من خلال التحدي الطموح لبرنامج أبولو.

ترمي المناورة التقنية الأولى إلى تزويد الولايات المتحدة بأكثر الوسائط تحسيناً، والمخصصة لمراقبة القوات السوفييتية مراقبة مباشرة. ومنذ أسر طائرة التجسس الأمريكية يو ٢ فوق الأراضي السوفييتية، عمد جون كنيدي إلى تسريع برنامج إطلاق أقمار صناعية عسكرية للرصد، الذي ابتدأ بسلسلة الأقمار الصناعية ديسكوفرر. وقد أحرز التحري عن المعلومات (الاستخبارات) بوساطة اللاسلكي والتصوير تقدماً هاماً يخضع كله للسرية العسكرية. فالمراقبة العسكرية المباشرة لكل من الدولتين العظميين

للأخرى، أدت في العام ١٩٧٢ إلى المفاوضات الأمريكية ــ السوفييتية واتفاق سالت ١.

أما المناورة الثانية، فتدعم القدرة على رد فعل الضربة الأمريكية الثانية. وقد صمم لهذا صاروخان جديدان عابران للقارات: الصاروخ البالستيكي بولاريس أولاً، الذي تفوق، للمرة الأولى، على جميع الأسلحة الذرية لكونه ينطلق من الغواصة النووية وهي تحت الماء. وبعده الصاروخ مينوتمان، الذي يوضع داخل فجوات مقاومة للانفجارات النووية الناجمة عن أول ضربة معادية، مضادة للقوات. وكان هذا يعني لكنيدي، وضع نهاية للصاروخ «غاب» الذي ظهر في عهد الرئيس ايزنهاور، والواقع، أن الردع النووي الأمريكي يتمتع بتفوق واضح، إذا ما قورن بالردع السوفييتي. فقد أراد الرئيس الأمريكي، من خلال حملة (الصاروخ غاب) تعزيز مركزية حلف الأطلسي، ابتداء من القيادة الأمريكية الوحيدة، وكانت بريطانيا العظمى، والأكثر منها فرنسا أيضاً، تبدوان كقوتين نوويتين تخلان بتماسك حلف شمالي الأطلسي وترابطه، فوسواس الولايات المتحدة في الاحتفاظ بتفوقها، موجه إلى حلفاء الولايات المتحدة كما هو موجه إلى الاتحاد السوفييتي.

أما المناورة الثالثة فهي التقنية الفضائية، المتعلقة ببرنامج أبولو، وهو إرسال رجل إلى سطح القمر قبل نهاية العقد الزمني.

وبينما كان السوفييت يواصلون إطلاقهم للأقمار الصناعية، حسب

برامج مذهلة (فوستوك وفوسخود) وكانوا بهذا يعدون للسباق نحو القمر الذي دخلوا ميدانه أيضاً، بدأت الولايات المتحدة بمبادرات فضائية متواضعة. وفي حزيران ١٩٦٢، أي بعد عام من إعلان برنامج أبولو أمام الكونغرس الأمريكي، عرضت الولايات المتحدة المخطط العملياتي لهذا البرنامج. الذي يمر بالخيار الأولي لخطة الطيران.

فثمة صاروخ عملاق طراز ساتورن ٥ يبلغ ارتفاعه ١١٠ م، مزود بخمسة محركات للدفع، قد يضم طابقين يأخذ ثانيهما مدار انتظار حول الأرض، قبل أن يستأنف المسير لإرسال المركبة أبولو نحو القمر. وإجمالاً، قد يبلغ وزن ساتورن ٥ نحو ١٤٠ طناً. وقد يقذف على سطح القمر بمركبة يبلغ وزنها ٤٥ طناً. وقد تضم المركبة أبولو ثلاثة أقسام:

١ ـــ مركبة قمرية للقيادة، يقيم فيها ثلاثة رواد فضاء في مدة الذهاب ـــ الإياب، الأرض ـــ المدار القمري.
٢ ـــ مركبة قمرية للخدمة قد تضم أجهزة الدفع حول القمر.
٣ ـــ المركبة القمرية الثالثة قد تستخدم للتجول فوق القمر.

تنفذ البرمجة التقنية لوكالة ناسا لأجل متوسط. وستفيد من مدة التصميم ومدة الوضع في الخدمة، ويستغرق ذلك، إجمالاً، ضعف المدة التي استغرقها برنامج مانهاتان، ولما كان مشروع أبولو يقوم على التوحيد بين العلم والتكنولوجيا، فقد ضم إليه البحث الجامعي، بل ضم أيضاً دوائر البحث في المشاريع الصناعية. وخطة الطيران المعتمدة تتطلب مساهمة

شركات كبرى جوية وفضائية، لإعداد التكنولوجيات التي تتطلبها المركبة المأهولة التي ستدور حول القمر.

من ربيع ١٩٦١ إلى تموز ١٩٦٩، اختبرت سلسلة من البرامج، معززة بمراحل متدرجة، إمكان صناعة مجموعة أبولو. وهكذا فتح نجاح طيران مركوري الطريق أمام العديد من تحليقات مشروع جيميني. اختبرت وكالة ناسا بحوثاً لم يسبق مثيل لتعقيدها، مثل المناورات على المدار، واللقاءات الفضائية، وأعمال رائد الفضاء خارج المركبة القمرية، وهكذا تفوقت الولايات المتحدة، منذ العام ١٩٦٥، على الاتحاد السوفييتي في البحوث الفضائية. فسفينة الفضاء جيميني تستطيع تغيير مدارها والانضمام إلى أحد الأهداف والرسو عنده. ويتميز العام ١٩٦٦ ببرامج سيرفيور ثم لونار — أوربيتر لاختبار المعدات على أرض القمر.

أخيراً، على الرغم من الحادث المأساوي في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٧ الذي أودى بحياة ثلاثة رواد فضاء أمريكيين، فإن وكالة ناسا نسقت، مع برنامج أبولو، تجارب تزداد تعقيداً أكثر فأكثر، في الطيران حول القمر. وفي ٩ تشرين الثاني ١٩٦٧، نجحت الولايات المتحدة في أول إطلاق لصاروخ من ثلاثة طوابق (مراحل)، هو ساتورن ٥، الذي وضع في المدار، بعد ١١ دقيقة، حمولة نافعة مقدارها ١٢٦ طناً.

في ١١ تشرين الثاني ١٩٦٨، أصبح توماس بين المدير الجديد لوكالة ناسا، خلفاً لجيمس ويب. وقد قام برهان غيرِ عادي، وهو إرسال

ثلاثة رواد فضاء للطيران حول القمر. وكان المسؤولون الأمريكيون الجدد ووكالة ناسا والمجموعة العلمية، تسيطر عليهم جميعاً، منذ العام ١٩٦١، فكرة كسب السباق نحو القمر، على الاتحاد السوفييتي. وفي ٢١ كانون الأول ١٩٦٨، أطلقت الولايات المتحدة أبولو ٨، بينما كان على الاتحاد السوفييتي أن يعدل عن مشروع إنزال رائد فضاء على سطح القمر، لأسباب تتعلق بتأخره التقني.

بعد سلسلة من تتابع النجاح المدهش، وفي ١١ تموز ١٩٦٩، توصل اثنان من رواد الفضاء الأمريكيين نيل أرمسترونغ وادوين الدرين، إلى رفع علم الولايات المتحدة على أرض القمر، وكان العالم أجمع يتابع في التلفزيون مباشرة هذا النصر الأمريكي، لقد كسبت الولايات المتحدة الرهان، رهان جون كنيدي، وأثبتت تفوقها.

المناورة الرابعة وهي السياسية ــ النفسية، بدأها الرئيس كنيدي، وتابعها، بعد اغتياله، خلفاه الرئيسان لندن جونسون، وريتشارد نيكسون. كانت هذه المناورة تهدف إلى إظهار تقدم الولايات المتحدة التكنولوجي العسكري، أمام الرأي العام الأمريكي أولاً، والرأي العام العالمي ثانياً.

إن إعادة الهيبة والأولية في العالم تستند إلى اختبارات وكالة ناسا، التي اكتسبت طوعياً طابعاً شعبياً.

وعلى الرغم من الاضطرابات العنصرية، وحرب فييتنام، لم ينسَ

الرؤساء الأمريكيون الدرس الذي لقنه سبوتنيك للأمة الأمريكية. كانـوا يريدون كسب الرهان التقني الخارق في السباق نحو القمر. فبعد ايزنهاور، المتحفظ إزاء كل زيادة للنفقات العسكرية والفضائية في الميزانية، والذي كان يقف موقف العداء من تصاعد قدرة القوات المسلحة، ناضل الرؤساء الأمريكيون لزيادة الاعتمادات لصالح القطاع الفضائي، المدني والعسكري، وجعلوا الأولوية في الموازنة لاعتمادات وكالة ناسا، التي خصصوا لها اعتمادات ضخمة، برغم الضغوط المناوئة.

في العام ١٩٦٣، أتاح برنامج أبولو تخصيص الناسا بميزانية مقدارها ٥ر١ مليار دولار. وفي العام ١٩٦٥ بلغت هذه الميزانية ٢٥ر٥ مليار دولار، لتهبط في العام ١٩٦٨ إلى ٥ر٤ مليار دولار.

إن برنامج أبولو وحده، الذي ارتفعت كلفته، إجمالاً، إلى ٢١ مليار دولار، قد عبأ نسبة ٧٪ من اليد العاملة التقنية في الولايات المتحدة. وقد أعلن الرئيس كنيدي قائلاً: «الفضاء هو حدودنا الجديدة». فإطلاق أبولو ضمن إطار إدارة مدنية شجع على إعادة النظر في استراتيجية الوسائط النووية، البالستيكية والفضائية العسكرية الأمريكية، على نطاق واسع جداً. وكانت أبولو نقطة انطلاق الاستراتيجية المتكاملة للولايات المتحدة.

في مشروع استعادة الهيبة الأمريكية تجاه العالم، أصبح رواد الفضاء الأمريكيون أبطال الدولة الجدد. فحياتهم الخاصة التي مجدتها وسائل الإعلام يجب أن تبدو مثالية. وهم لم يعودوا ينتمون إلى البشرية العادية،

بمزاياها ونواقصها. وقد امحت صورة الأمريكي العادي، المعروف في الخمسينيات، أمام «جيل الأبطال».

كانت كل مهمة تحليق فضائي تزيد في المجد الوطني. ففي ٢١ كانون الأول ١٩٦٨، عندما عاد رواد الفضاء الثلاثة، فرانك بورمان وجيمس لويل، ووليم اندرز، سليمين أصحاء من مهمتهم، بعد أن أكملوا عشر دورات حول القمر، بسفينتهم أبولو ٨، أثاروا عاصفة من الجذل الوطني، فبعد مأساة أبولو ٧، أنقذوا أبولو وبزوا الانجازات السوفييتية.

هكذا لم يعد لوجود مكارثية[٨] سنوات الخمسينيات داعٍ. فرواد الفضاء يجسدون القيم النوعية للديمقراطية الأمريكية: فهم صريحون، مستقيمون، وطنيون، منتصرون، وأمريكا تريد أن تجد ذاتها فيهم، والاتحاد السوفييتي لم يعد مخيفاً. ومناوراته لا يمكنها من الآن فصاعداً، النيل من الالتحام الأمريكي. لقد تكون شعور وطني جديد.

ومع أبولو، وسيلة الاستراتيجية الأمريكية وواجهتها، انبرى شعور وطني يتطلع نحو مستقبل أمريكا. وظهور هذا الشعور في زمن التحمية، وجد مبرراته على الأرض، بل في الفضاء أيضاً، أي في النجاح التكنولوجي، فغزو الفضاء الكوني انعكس على سلطة رؤساء الولايات المتحدة التنفيذية.

---

(٨) المكارثيه: سياسة ظهرت في منتصف القرن العشرين، تصطنع الدولة فيها العنف «ضد العناصر الهدامة...» كما يزعم ماك ارثر، وتشهر بالأفراد من دون تحقيق.

والاستراتيجية المتكاملة التي يسيرون في ركابها أظهرت التداخل العميق بين الاستراتيجية والعلم والاقتصاد. والدولة الفدرالية، يدعمها شعور وطني جديد من الشعب الأمريكي، وهو أداة المغامرة الجماعية، ضمنت الاتصال الحيوي بين استراتيجية الوسائط العسكرية والنمو الصناعي المدني.

كان لبرنامج أبولو، على مدى أكثر من عقد من الزمن، تأثير حماسي دافع، بتكوينه سوقاً أولية للمنتجات ذات التكنولوجيا الرفيعة. وقد ظهر الدور الاستراتيجي للدولة الفدرالية، بوساطة وكالة ناسا، بعد إرساء قواعد الصناعة الفضائية، التي تنوعت ضمن ثلاثة قطاعات كبيرة من ميادين النشاط الصناعية القاعدية.

١ ــ صناعة الأقمار الصناعية وتجميعها: المهام العلمية المنجزة، بهذا الصدد، إلى جانب برنامج أبولو، كان هدفها مراقبة ظواهر الأرصاد الجوية وسبر الكواكب بوساطة المحطات الآلية. وبدفع من وكالة ناسا ومن وزارة الدفاع، صنع العديد من الأقمار الصناعية المتخصصة، التي أدت إلى حدوث تطورات سريعة جداً في تكنولوجيتها. ومن الأقمار الصناعية السلبية إلى الأقمار الصناعية الإيجابية (النشطة)، بدأ البحث الفضائي عصر الاتصالات الفضائية عن بعد، وعصر البث المباشر لبرامج التلفزيون والإذاعة على مستوى الكرة الأرضية (مندوفيزيون)[٩].

---

(٩) كلمة مؤلفة من: (Monde): عالَم، و(Vision): رؤية.

في أقل من أربع سنوات، ابتداء بالأقمار الصناعية، ايكو ١، ايكو ٢، توصلت وكالة ناسا إلى تجميع محطات هرتزية، مستعينة بالأقمار الصناعية تلستار، ثم بالأقمار الصناعية سنكوم ٣ في آب ١٩٦٤، التي تستقبل الإشارات الصادرة من الأرض، وتضخمها مليارات الأضعاف ثم تبثها ثانية نحو محطات الاستقبال على الأرض.

فالتطبيقات العملية للتكنولوجيات الفضائية في ميدان الاتصالات عن بعد، ومعها الأرصاد، ولدت العديد من التطبيقات الأخرى، مثل صناعة الأقمار الصناعية الأرصادية، وأقمار مراقبة الأرض، والكشف عن بعد، وأقمار الاتصالات عن بعد للاتصال من مسافات بعيدة، وإن تأسيس المنظمة الدولية للأقمار الصناعية، انتلسات، أو الأقمار التجارية أتاح ولادة الاتصالات المنزلية عن بعد.

٢ ـــ قطاع النشاط الثاني يتعلق بصناعة وسائط النقل الفضائية وإطلاقها، بغية وضع الأقمار الصناعية في المدار.

٣ ـــ أخيراً، يدفع القطاع الثالث من النشاط باتجاه صناعة محطات على الأرض، لبث المعلومات باتجاه الأقمار الصناعية واستقبال المعلومات الآتية منها.

إن إنشاء وكالة ناسا لصناعة فضائية قد أفاد صناعة الولايات المتحدة، بنقله إلى القطاع الخاص التكنولوجيات المتقدمة التي طورتها هذه الوكالة، التي كانت أهم مستثمر على صعيد البحث النظري الفضائي

وتطويره. وما إن يصبح أي برنامج عملياتياً وتجارياً، حتى يكون على الوكالة أن تتخلى عنه، مكتفية بتوجيه الأعمال التي تتطلب مخابر ضخمة ووسائط تجربة بالغة التكاليف، وهذا لا قبل بتمويله إلا للدولة، أما المركبات الفضائية، والصواريخ ومعدات التحكم، والأقمار الصناعية التي تمولها وكالة ناسا، فإن عملية التجميع والصناعة تنفذ بموجب عقد مع الصناعة، وتعدد عمليات المقاولة من الباطن ذو فائدة مباشرة للقطاع الخاص. فوكالة ناسا، بما توزعه من عقود البحث والدراسة، قد أتاحت إنشاء أقسام بالستيكية وفضائية في معظم مشاريع الطيران الكبرى، وحسب تقرير صدر عن وكالة ناسا في تشرين الأول ١٩٧١، «التأثير الاقتصادي للنشاط التكنولوجي الحافز»، فإن النفقات الفضائية المبذولة بين العام ١٩٥٩ والعام ١٩٦٩ كانت انعكاساتها بنسبة ٧ بدلاً من واحد. وقد استهلكت صناعة الطيران، إجمالاً، نحو ٥٠٪ من مجموع المساعدات العامة التي منحتها الحكومة الفدرالية للبحث ـــ والتطوير، موزعة على القطاع الصناعي في السبعينيات.

وقد لحظت دراسة صادرة عن منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، عنوانها «صناعة الفضاء» أنه خلال الستينيات: «لم تقم قوى السوق إلا بدور صغير، فصناعة القدرات الفضائية كانت مدفوعة، على الأخص، بقرارات الإدارات المختصة. ومن ناحية ثانية، رئي أن النفقات الفضائية تشكل صيغة أصلية لتمويل التجديد، نظراً للإمكانات المقدمة للصناعة عموماً، للاستفادة من نتائج البحوث الفضائية لصناعة منتجات جديدة أو تعديل بعض نواتج التصنيع».

مارست القطاعات الثلاثة الكبرى في الصناعة الفضائية، تأثيراً تعاونياً واضحاً، وذلك بجمعها بين عدد كبير من الأجهزة والأجهزة الفرعية والعناصر، جمعاً مركباً، في سياق صناعتها.

استلزمت صناعة الصواريخ تجميع العناصر المعدنية ودمجها (جسم الصاروخ، غطاء الصمامة)، وكذلك أجهزة الدفع والوقود، والحجرات، ومختلف الأعتدة، مثل المضخات العنفية، وحواسب المتن، وأجهزة التوجيه بالعطالة، وقياس المسافات عن بعد. والإمداد (اللوجستيك) لإطلاق الصاروخ يتطلب إنشاء مبانٍ أرضية، مثل قاعدة الإطلاق، وإعداد التجهيزات الالكترونية لمتابعة الطيران ولخدمات تنظيم المجموع وإدارته.

تولدت عن الأقمار الصناعية مجموعة متنوعة من الأجهزة الفرعية، مثل منصة الإطلاق والحمولة النافعة، وتضم الأقمار الصناعية صفائح للخلايا الشمسية، ومحركات للأوج والحضيض[١٠] ووسائط للتحكم والارتفاع والبطارية، والكترونيات المتن، وفي شبكات المحطات الأرضية أيضاً، أجهزة الاتصالات عن بعد، مع هوائيات الاستقبال والبث. تضاف إلى هذه المحطات أجهزة تضمن حركية الهوائيات، وأجهزة بصرية للاستقبال وأجهزة للجمع بين الاتصالات عن بعد والانفورماتيك والاتصالات اللاسلكية الكهربائية.

---

(١٠) الأوج أقصى نقطة في بعد القمر عن الأرض والحضيض هو العكس.

إن هذه الأجهزة والأجهزة الفرعية، بمجموعها، قد يسرت تحديث المشاريع الأمريكية الكبرى المتعلقة بالصناعة الميكانيكية، والصناعة الكيماوية، والصناعة الكهربائية، والالكترونيات، مثل شركات روكويل، مارتان مارييتا، مورتون تيوكل، جنرال الكتريك، وشركة ي ب م. كما أتاحت أبولو ظهور السليكون المحزز (سيليكون فالي)، الذي دفع، بدوره الانطلاقة الخلاقة التي شجعت تدريجياً التسريع المتواصل للتجديد في صناعة الألكترون ــ الانفورماتيك، كما أن غزو الفضاء أتاح أيضاً، إدخال تجديدات كبرى لم يكن يتوقعها أي تخطيط، كما أحدثت الانعكاسات غير المتوقعة، المختصة بإقلاع برنامج قمري ضخم، ثورة استراتيجية في الوسائط العسكرية وأسس القدرة الصناعية في القطاع الخاص.

لجأت مختلف الأقمار الصناعية المخصصة للرصد، إلى البحث في الرصد، باستخدام الأشعة تحت الحمراء والرادار. وحفزت أقمار الاستطلاع والمراقبة رصد أعمال نشر القوات في العالم في جميع الأوقات. وأتاحت أقمار الاتصالات عن بعد للقوتين العظميين أن تنشرا تدريجياً، شبكة عالمية للاتصالات الدبلوماسية ولاتصال القيادة بقواتها العسكرية، أما النقل البحري العسكري، فقد أفاد من الإنجازات الضخمة.

إن انطلاقة الاتصالات عن بعد، والبحوث الفضائية، قد أحدثت علوماً جديدة انتشرت في الصناعة الخاصة.

أما العلم الحراري، والبناء، وعلم البصريات، والالكترونيات

والانفورماتيك، فقد ضمت إليها، بدورها، عناصر جديدة، وتطورت متسارعة للمعالجة وتنظيم القرار، وأدى ذلك إلى إيجاد طرائق جديدة في العمل، مثل خطط التطوير الانفورماتيكية (التي تخضع المعلومات فيها للمعالجة الآلية). كما أن التقنيات الطبية عرفت الكثير من التجديدات الهامة وغير المتوقعة. ولا سيما علم الأحياء الإشعاعي الفضائي.

وهكذا نجد أن وتيرة التجديد السريعة التي أحدثتها أبولو خلال عقد من الزمن، قد أتاحت تشكل ملاك نوعي من العلماء، والتقنيين، والمهندسين، في العلوم كافة. وكانت أبولو أقدر من مانهاتان، لأنها كونت الأمة الأمريكية على إيجاد شبكة من العلاقات المتبادلة، في الدولة الأمريكية، بين السياسة والاستراتيجية العسكرية والاستراتيجية الصناعية، وقد حفزت الدولة الفدرالية الأمريكية جميع القوى الحية في الأمة.

إن الولايات المتحدة بتصديها للتحدي السوفييتي وانتصارها، قد أثبتت حيويتها وقدرتها على تطوير استراتيجية متكاملة تقوم بإصرار على المغامرة المجهولة النتائج!

نحو العسكرة المتكاملة



مبادرة الدفاع الاستراتيجي والقدرة العسكرية

في ٢٣ آذار ١٩٨٣ ، عرض الرئيس الأمريكي رونالد ريغان على الأمة الأمريكية برنامجاً ضخماً للبحث العسكري الطويل الأمد، أسماه «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» .

فبدلاً من التدمير المتبادل المحقق بين الدولتين العظميين القائم على توازن الرعب بوساطة الردع النووي، يجب إحلال البقاء المتبادل المحقق، بإيجاد استراتيجية جديدة للدفاع المباشر .

إنه دفاع لا مثيل له في التاريخ، فمبادرة الدفاع الاستراتيجي تهدف إلى السيطرة، خلال عقد من الزمن على الأسلحة وعلى تكنولوجيات الدفاع الفضائي القادرة على تفادي كل هجوم نووي على الأراضي الأمريكية .

تفترض مبادرة الدفاع الاستراتيجي الحصول على ما يلي :

ــ أقمار صناعية للرصد، والإنذار، والتدخل، توجد باستمرار فوق مناطق إطلاق الصواريخ المعادية .

ــ عقول الكترونية قادرة على اتخاذ القرار بخوض الاشتباك في غضون بضع ثوان، بوساطة قوات الدفاع المباشر.
ــ أسلحة ذات طاقة ساكنة (ك أي دبليو) وذات طاقة موجهة (د اي دبليو)، ولهذه الأسلحة قدرة على التدمير شبه آنية.

الانتصارات العملياتية لمنظومة دفاع فضائي المتمتعة بفاعلية شبه مطلقة، تتطلب تجديدات علمية وتكنولوجية هائلة. ولا يمكن أن تقاس، بشكل من الأشكال، بما سبقها من برامج مثل مانهاتان وأبولو.

فبمواجهة تكنولوجية، لا حدود لها، تشرك مجموع القوى الإبداعية كلها لدى الدولتين العظميين، تنوي أمريكا استنزاف منافستها، والتفوق على أعتدتها، من دون أن تدمرها عسكرياً.

ومنذ ذلك الحين عبأت مبادرة الدفاع الاستراتيجي، إضافة للصناعة الدفاعية الأمريكية، مجموع قدرات الأمة الأمريكية الحالية والمستقبلية.

إن تصعيد المنافسة التكنولوجية إلى الحد الأقصى، الذي يميز عصر العسكرة المتكاملة، لم يتحقق في الماضي إلا في لحظات نادرة من الحرب الشاملة، وهكذا ينبغي لنا البحث عن الجذور التاريخية لحشد مجالات النشاط الوطني.

يرجع أصل مفهوم «القدرة العسكرية» إلى الكونت غيبير[١]، ففي

---

(١) ارجع إلى لوسيان بواريه «أصوات الاستراتيجية» فايار ١٩٨٦.

كتابه «بحث في عالم التكتيك»[٢](١٧٧٢)، يطور غيبير مبتكر نظام الفرق، فكرة جيش الشعب الوطني كوسيلة لقدرة الدولة، في زمني السلم والحرب. وإن دعوته إلى تعبئة القوى الشعبية التي تحركها الأهداف الوطنية، هي تنبؤ بالحروب المدمرة في القرنين التاسع عشر والعشرين. وهكذا سمع الثوار في العام ١٧٨٩ صوت غيبير التنبؤي. وفي فالمي[٣] شهد غوته[٤] ولادة الحرب الحديثة. فكتب قائلاً: «من هذا المكان، وفي هذا اليوم، يبدأ عصر جديد في تاريخ العالم». لقد كانت رؤيته صحيحة ومحققة. فبعد مدة قصيرة، قام سان ــ جوست وكارنو، يوجههما «بحث غيبير»، بتنظيم الديكتاتورية العسكرية للدولة، بفرض نظام حكم إرهابي، وكان ذلك لمواجهة الغزو الخارجي والداخلي. ولما كانت الرغبة في عظمة فرنسا تشدهما، والعقيدة الثورية تحثهما، فقد أقاما الصلة بين جيش الشعب، وجيش المواطنين، والجيش المسيحي. وقد أفاد بونابرت كل الفائدة من هذه الثورة بشنه حروب إبادة ضخمة.

---

(٢) نشر «بحث عام في التكتيك» في مؤلف «الكونت دوغيبير» استراتيجيات، مطابع دولين ١٩٧٧، ٧٢٨ صفحة وخارطة.

(٣) بلدة في منطقة المارن الفرنسية، وعندها هزم الجنرال الفرنسي ديموريه القوات البروسية في ٢٠ أيلول ١٧٩٢.

(٤) ١٧٤٩ ــ ١٨٣٢ كاتب وسياسي وعالم ألماني شهير، له الكثير من الأعمال (فوست، فرتر ...).

إن مسيرة الإدارة الصارمة لحرب الشعب النابليونية الشرسة، قد سببت ظهور القوميات الأوروبية وتمجيدها. وكردة فعل على كارثة معركة «يينا» وعلى سحق بروسيا، أثار فيخته في الأمة الألمانية الشعور الوطني، والوحدة، ودعا إلى تشكيل دولة وطنية كبرى. هذا الفيلسوف (وهو مواطن عالمي ممتاز) تبنى المثل العليا الفرنسية ليعلن لمواطنيه بحرارة[٥]: «أنتم الذين تملكون، بين شعوب العالم الحديثة، بذرة الكمال البشري بأوضح أشكالها، وإليكم يعود حق الصدارة في تطوير البشرية».

فدعاة الوحدة الجرمانية الذين ألهمهم فيخته، أدركوا مدى تمجيد غيبير للدولة ومدى الحرب النابليونية كأداة للسياسة.

أما الجنرال فريدريك فون برنهاردي، الذي يعد من ألمع ضباط الأركان الألمانية قبل العام ١٩١٤، وعضو الرابطة الجرمانوية، فيرى أن الحرب تمثل «إرغاماً معنوياً وهي بهذا عامل لازم للحضارة»[٦]. وفي مؤلفه «حرب اليوم» يعرض فرضية الجرمانوية الكاملة (الوحدة الجرمانية التامة). فالألمان، بالنسبة له، هم العامل الضروري لتطوير البشرية. أما واجب الدولة فهو

---

(٥) جان ــ جاك شوفالييه: «الآثار السياسية الكبرى»، أرماند كولان، ١٩٦٠، صفحة ٢١٨.

(٦) فريدريك فون بيرنهاردي «مستقبلنا»، ن. كونارد ١٩١٦، الصفحات ٦٢ ــ ٦٣.

القدرة، وتوسيع هذه القدرة. وهو يكتب بهذا الصدد: «إذا كنا نريد أن نحتل لأمتنا المكانة العالمية التي تستحقها، فعلينا أن نعود إلى سيفنا، ونعدل عن هذه الطوباويات السلمية الرخوة، ونجابه بلا وجل، بقلب واثق، الأخطار المحدقة بنا»(٧).

إن ألمع الذين يمثلون الأركان الألمانية العظمى وأبرزهم ــ وهم شليفن، مولتكه، لودندورف ــ كانوا يستلهمون فلسفة برنهاردي في الحرب، فعلى ألمانيا، في نظرهم، رسالة تحقيق سيطرة عسكرية، وعلى الدولة أن تمتثل لغايات الغزو العسكرية.

استخلص لودندورف ــ وقد سيطر عليه وسواس انهيار ألمانيا من الداخل ــ الدروس من الحرب العالمية الأولى. ففي كتاب له عنوانه «الحرب الشاملة»، تصور الجنرال لودندورف شكلاً جديداً للدولة يرتبط «بالقائد الحربي». وهذه الدولة تُخضع الحياة الاجتماعية كلها لأغراض عسكرية فقط. وهو يستخلص مفهوم الإعداد للحرب في كل الميادين في ظل سلطة الجيش. فعلى الصعيد المعنوي، كان على الإعداد للحرب أن يعزز «تلاحماً حيوياً» يقوم على قوة العرق. أما على صعيد الاقتصاد، فعلى الجيش أن يتحكم بالإنتاج، ويقوم بالتخزين، والتقنين، ليتغلب على كل حصار، ويجعل الأمة تعيش على الاكتفاء الذاتي.

---

(٧) «الحرب اليوم» صفحة ١١ ــ ١٢ ترجمة اتارد، باريس، مطبوعات شابلو ١٩١٣.

النظرية العسكرية للحرب الشاملة، التي ألهمت الهتلرية والمذهب القومي ـــ الإشتراكي، ترمي إلى إخضاع الطاقات الألمانية والتقنية للهدف الشمولي. وقد عمل هتلر ثانية بأفكار لودندورف الذي ساهم في أول انقلاب عسكري في ميونيخ، ويبدو هذا واضحاً في كتابه «كفاحي» بما يلي: «ستكون ألمانيا قوة عالمية أو لن تكون... لأجل حدادة السيف[8] ـــ وهذه هي مهمة السياسة الداخلية للحكومة ـــ يجب توحيد شعبنا وقدرته». ولقد وضع تاريخ الرايخ الثالث بكامله بموجب مقتضيات السيطرة العسكرية التي ترمي، حسب كلمة غورينغ، إلى أن تجعل من ألمانيا «مصنعاً وثكنةً ومطبخاً وحيداً».

وهكذا تم تطبيق نظرية الحرب الشاملة داخلياً وخارجياً.

ففي الداخل، نظم الرايخ الثالث ثورة في إمداد القوات العسكرية وتموينها (اللوجستيك). وإن برامج صناعة الأسلحة، التي نظمت تنظيماً علمياً، قد حددت تشكيل جيوش جديدة. وهذه الطريقة مهدت السبل والوسائط أمام الولايات المتحدة، وبعدها بعشر سنوات، أمام الاتحاد السوفييتي لإعداد قوى وأجهزة نووية.

أما في الخارج، فقد لجأت الدبلوماسية الألمانية في زمن السلم إلى أساليب غير عسكرية من الحرب الشاملة. فمارست استراتيجية العمل غير

---

(٨) المقصود بهذا التعبير، التسليح والإعداد للحرب.

المباشر، وهي استراتيجية قريبة من الحرب، غير أنها تبقي على وهم حالة السلام، إنها سياسة الدفاع (ويهربوليتيك)، التي وضع كل من البروفسور هوشوفر والبروفسور بانس نظريتها. وهدفها يقوم على شل روح الخصم القتالية، بتأثيرها تأثيراً علمياً، في نقاط ضعفه كافة. فالدعاية والتهديدات، والتسلل والنفوذ، تكوّن كلها عناصر المناورة النفسية ـ العسكرية.

ظهور الردع النووي دعم صحة مفهوم غيبير للقدرة الكلية للدولة. ففي الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، يوجه رئيس الدولة الاستراتيجية المتكاملة حسب الهدف السياسي الذي تمليه أمته. وكان الزعماء في هاتين الدولتين يسعون جاهدين، حتى وصول الرئيس رونالد ريغان إلى الرئاسة، إلى احتواء استراتيجية الوسائط، التي أصبحت في زمن التحمية، البديل للحرب المباشرة.

لكن استراتيجية صناعة الأسلحة، اكتسبت، بحيلة من حيل التاريخ، أهمية غير متوقعة في غضون عقد من الزمن.

فهذه الاستراتيجية تسعى لتوسيع غايتها الخاصة، وهي البحث باستمرار عن هامش للأمن، والتفوق على الخصم، وهذا التفوق يدخل أحياناً في نزاع مع القصدية (الغاية) السياسية من العمل الدولي.

على الرغم من هزيمة النازية، فالتناقض هو أن مفاهيم الوحدة الجرمانية (الألمانية) للغاية العسكرية التي تتوخاها الدولة العسكرية، قد

عاشت وبقيت رغم الهزيمة، وبررت بالتدريج انعتاق استراتيجية الوسائط وتحررها من قيودها في ظل الاستراتيجية المتكاملة.

استؤنفت أعمال الرائخ الثالث في مضمار البحوث البالستيكية والفضائية، التي تابعها الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، بما لديهما من قدرات وإمكانات ضخمة، مما زاد من قدرة هذه الأعمال، وأدى إلى التنافس بين الغاية السياسية والغاية العسكرية التي تحفزها استراتيجية الوسائط.

فالاستراتيجية المتكاملة السوفييتية، التي استخدمت الفضاء الكوني أرضية للتفوق على الولايات المتحدة، قدمت الدليل للاستراتيجيين والعسكريين على الهجوم المضاد.

في خطبة الوداع التي ألقاها الرئيس ايزنهاور، في ١٧ كانون الثاني ١٩٦١، حذر الأمة الأمريكية من خطر استراتيجية الأسلحة التي تصبح قاتلة مفترسة وغاية بحد ذاتها، وتؤدي إلى الهلاك. أما خلفه جون كنيدي، فلم يستطع أن يستبعد الجدل بشأن النزاعات وأساليب برمجة منظومات الأسلحة. والمعاون الثاني لوزير الدفاع، الان سي. أنتوفن، في حكومة كنيدي ووزير الحربية مكنمارا، قد أضفى على الإدارة المعقدة للاستراتيجية المتكاملة صفة العقلانية. فأنقذ بعمله هذا، كما أراد كنيدي، أولية السياسة في توجيه «الرد المرن» للردع.

في أيار ١٩٧١ ، عندما أرادت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي التفاوض في اتفاقات الحد من الأسلحة الهجومية والدفاعية ، أراد البنتاغون ورؤساء مختلف صنوف الأسلحة مواصلة برنامج واسع مضاد للصواريخ البالستيكية (آ ب م) . ويقول هنري كيسنجر في « مذكراته »[٩] ما يلي :

« بعد التوقيع على هذه الاتفاقات بزمن طويل ، أصبح انتقاد تفاوتها يتماشى وروح العصر . صحيح أن الجمود حافظ خلال خمس سنوات على التفاوت العددي بين القوى البالستيكية السوفييتية والأمريكية التي نمت وتزايدت خلال العقد الماضي من الزمن ... وفي هذه الفترة الفاصلة ، عجلت الإدارة تنفيذ برامج جديدة ، ترايدنت ، ب ـــ ١ ، مينوتمان ٣ ، آ ب م ، ميرف (الصاروخ ذو الرؤوس المتعددة والموجهة كل رأس على حدة) .

وهكذا ، فإن الجمود العددي لم يوقف أي مشروع من مشاريعنا ، غير أنه وضع حداً للمشروع السوفييتي الذي كان يتضمن صنع ٢٠٠ صاروخ بالستيكي عابر للقارات وغواصة قاذفة للصواريخ البالستيكية في كل عام . وفي المقابل قبلنا بوضع حد لصواريخنا البالستيكية المضادة ، وهي ورقتنا الرابحة التي كان الكونغرس ، من ناحية ثانية ، على وشك تمزيقها » .

غير أن قسماً كبيراً من الجمهوريين رأى أن موقف الولايات المتحدة من الاتحاد السوفييتي في مفاوضات سالت كان مغالياً في تساهله .

---

(٩) هنري كيسنجر « في البيت الأبيض » الجزء ٢ ، الصفحة ٨٧٩ ، فايار ١٩٧٩ .

نحو نهاية السبعينيات، ظهر تيار تمثله أقلية لكنه تيار نشيط، كان يضم بعض أعضاء مجلس الشيوخ والعلماء والعسكريين، ويعلن بإصرار تأييده لإقامة دفاع مضاد للصواريخ.

الجنرال غراهام، وهو معاون مدير سابق في وكالة المخابرات المركزية، نشر، في عهد مؤسسة «هريتاج فاونديشن» برنامجاً من مقترحات للبحوث بخصوص التكنولوجيات المتقدمة للأسلحة المضادة للصواريخ البالستيكية (ب م د).

جماعات أخرى، مثل جماعة الجنرال المتقاعد ادوارد راوني أو «لجنة الخطر الحالي» المرتبطة برونالد ريغان، طالبت بإجراء تجديد واسع جداً للترسانة الاستراتيجية الأمريكية. وينتمي عدد من شخصيات لجنة الخطر الحالي إلى أول حكومة ريغانية، مثل ك. ادلمان، مدير وكالة مراقبة الأسلحة ونزع السلاح، ب. نيتز وهو مفاوض في جنيف يتفاوض مع السوفييت، اي. روستو وهو مدير سابق لوكالة مراقبة الأسلحة...

كانوا جميعاً يتشاطرون الفكرة القائلة: إن السعي لتحقيق أولية السيادة العسكرية الأمريكية، يتطلب استخدام قدرة كلية للتفوق على الاتحاد السوفييتي. وقد عرض الفيزيائي ادوارد تللر مفاهيم الفكرة المذكورة، في كتابه المنشور في العام ١٩٦٨ تحت عنوان «خيار للأمن».

في أثناء الانتخابات الرئاسية عام ١٩٨٠، كان الانطباع السياسي عن هذا الركام الخليط، الذي يمثله رونالد ريغان، يتجاوب وانتظار أمريكا

المهانة، عندما أعلن ريغان أنه صانع الإصلاح الذي يحفظ البلاد، فبعد الهزيمة العسكرية في فييتنام، والفشل التقني الذي منيت به محاولة تحرير الرهائن الأمريكيين في إيران، وزوال هيبة السلطة التنفيذية في عهد جيمي كارتر، كان الرأي العام الأمريكي متعطشاً للأخذ بالثأر. أما بخصوص الصحافة الأمريكية، التي سحرها تأثير المرشح الجمهوري غير المباشر، فقد اتضح لها أن رونالد ريغان هو السياسي الأكثر فاعلية تجاه وسائل الإعلام في عهد ماك لوهان(١٠). وحملته الانتخابية كانت تطالب بزيادة ميزانية الدفاع زيادة كبيرة، وبتقليص شديد للنفقات الاجتماعية.

لقد اختصر ريغان برنامجه بعبارة «السلام بالقوة». وفي الأول من تشرين الأول ١٩٨٠، في مقابلة صحفية لاسوشيتد برس، أعلن قائلاً: «إذا كنت أعارض اتفاقات سالت ٢، فليس لأنها تنص على الحد من التسليح، فأنا أعتقد أنها معاهدة مزيفة، وأنها ليست للحد من التسليح... فالبطاقة الوحيدة التي كانت تنقص هذه المفاوضات، هي إمكان سباق التسلح. فالسوفييت قد دخلوا هذا السباق، إنما بلا منافسة. أعتقد، إذن، أننا سنمضي بعيداً جداً في المفاوضات، إذا ما عرفوا أن عليهم، إذا ما استمروا، مواجهة قدرتنا الصناعية كلها، وكل ما نحن قادرون على فعله».

---

(١٠) ماك لوهان: باحث كندي ولد في العام ١٩١١، هاجم دور الكتاب الذي تراجع أمام وسائل الإعلام الجديدة كالإذاعة والتلفزيون.

كان ريغان يريد، إذا ما انتخب، أن يمنع أية إمكانات لشن هجوم وقائي سوفييتي. لهذا يجب تعبئة طاقات أمريكا كلها. وأعلن أنه لا يكترث كثيراً بتحريض سائر العالم له: «فنحن نريد أن نكون محترمين».

لما كان رونالد ريغان معجباً بالرئيس ف. د. روزفلت، فقد أعاد رفع شعاره: «علينا أن نكون ترسانة الديمقراطية».

يرى ريغان أن أمريكا التي فترت همتها يجب أن تستيقظ، بعنف، معتنقة فرضيات العسكريين المحترفين. ونادى، لهذا، بانطلاق القدرة العسكرية انطلاقاً حيوياً.

إن إحلال الاستراتيجيين المدنيين محل العسكريين، يبدو، في نظر ريغان، أنه قد جرَّ أمريكا إلى ارتكاب أفدح أخطائها الاستراتيجية، ويعني بذلك فييتنام واتفاقات سالت. وكانت حملة ريغان الانتخابية وكذلك انتخابه للرئاسة، يدلان على ردة فعل طالما انتظرها البنتاغون. في وول ستريت في نيويورك (حيث تقع البورصة) أدى انتصار ريغان إلى رفع أسهم صناعة الطيران والصناعات العاملة في ميدان الدفاع، على نحو سريع.

ابتداء من العام ١٩٨٢، قدمت «هريتاج فاونديشن» تقريراً عنوانه «الحدود العالية» تبين فيه تحدي الولايات المتحدة العسكري ـــ التكنولوجي الكبير، وقد أعلن واضعو تقرير «الحدود العالية» بلا غموض، ما يلي:

«أفضل أمل لنا تغيير استراتيجيتنا والمضي في منافسة تكنولوجية ستكون لصالحنا»[١١].

عرض الرئيس ريغان الفرضية نفسها في خطبته الشهيرة عن الأمن الوطني في ٢٣ آذار ١٩٨٣:

«فلنتجه نحو القدرة التكنولوجية التي أنتجت أسس صناعتنا العظيمة، والتي ندين لها بنوعية العيش الذي نتمتع به اليوم...

«يجب أن نبذل جهوداً في العديد من المجالات خلال سنوات، بل عشرات السنين. سيكون هناك فشل وتخلف، ولكن هناك أيضاً النجاح والتقدم الصاعقان...

«في ضوء هذه البواعث، إنني أدعو المجمع العلمي الذي منحنا الأسلحة النووية، لوضع مواهبه الرفيعة في خدمة البشرية والسلام العالمي، ويقدم لنا الوسائط لضرب أسلحة العجز هذه وإلقائها في زوايا الإهمال».

ودعا الرئيس ريغان، في خلاصة كلامه، أمريكا إلى نصب درعها:

«إنني أطلب أن نبذل قصارى جهدنا، في جميع الميادين المطلوبة، وبحماسة، لتحديد برنامج بحث نظري وتطبيقي طويل الأجل يتيح لنا البدء

---

(١١) الحدود العالية، صفحة ٣٥.

بالتقدم نحو هدفنا النهائي، يعني استئصال التهديد الذي تمثله الصواريخ الاستراتيجية النووية».

كان خطاب رونالد ريغان بداية عصر جديد من الاستراتيجية، بعد مضي الولايات المتحدة نحو مشروع مبادرة الدفاع الاستراتيجي.

ثلاث حقائق ثابتة تفرض نفسها هي:

١ ـ لقد غيرت استراتيجية الوسائط مستواها، ووضعها وطبيعتها، بسبب أهمية منظومات الأسلحة التي تملكها وما تتطلبه من جهد مالي وعلمي. فمنذ ذلك الحين صارت صناعة الأسلحة تشمل الاستراتيجية المتكاملة وتقودها. وما دامت استراتيجية الوسائط عنصراً حاسماً في مجابهة الاتحاد السوفييتي، فإنها توجه قرارات صناعة منظومات الأسلحة لتكون قرارات طويلة الأجل، وترمي إلى فرض غاياتها على الاستراتيجيين العسكريين كما على رجال السياسة.

٢ ـ تدفع استراتيجية الوسائط، منذ ذلك الحين، إلى وضع استراتيجية أخرى، هي استراتيجية تطوير القوى المنتجة.

خرج خيار الدفاع المباشر من الإطار العسكري التقليدي واستعان بفعاليات المجتمع المدني المختلفة. فقد عبأت صناعة الأسلحة قطاعات صناعة الدفاع، ولكنها عبأت أيضاً فعاليات البحث الأساسي التطبيقي في الكثير من المخابر والجامعات، والعديد من المشاريع الصناعية. واستندت إلى

التقدم المتسارع في مجالات علمية متنوعة، مثل اللازرات، والذكاء الاصطناعي، والعقول الالكترونية الكبيرة القدرة، والعناصر الالكترونية العالية التقسية (التصليب)، ووسائط الكشف بالأشعة تحت الحمراء، والرادار، إلخ... كذلك رمت صناعة الأسلحة إلى عسكرة قطاعات التجديد التكنولوجي، بعد أن أصبحت هذه أيضاً جزءاً لا يتجزأ من استراتيجية الوسائط، وهكذا هدفت إلى أن توحد تحت قيادتها مجموع الاستراتيجيات الاقتصادية، والثقافية، والمالية، وهكذا أيضاً، مهدت استراتيجية الوسائط الطريق أمام العسكرة المتكاملة.

٣ ــ أخيراً، غيرت استراتيجية الوسائط طبيعتها، فهي قبل أن تأخذ مكانها كاستراتيجية طويلة الأمد، بل كفرضية، وحتى قبل أية دراسة في إمكان صياغتها المتوقعة منذ ظهورها، حتى عقد من الزمن، فإن استراتيجية الدفاع المباشر أحدثت بعض الآثار النفسية التي لا سبيل إلى حدوثها قديماً، إلا بعد انتصار عسكري، وذلك لأن مبادرة الدفاع الاستراتيجي قلبت أسس الاستراتيجية النووية، وغيرت العلاقات الدولية. وبها تمكنت الولايات المتحدة من فرض إعادة النظر في أوضاع الدول النووية الأخرى، وحاولت أن تمارس استراتيجية القسر والإكراه على أكثر أمم العالم تقدماً تكنولوجياً.

البحث عن السيطرة العسكرية

منذ تسلم ريغان منصب رئاسة الولايات المتحدة عمد، بعزم وإصرار، إلى إعادة تسليح البلاد تسليحاً مكثفاً. ولم يكن الرأي العام الأمريكي قط في مثل هذه الحماسة لإعادة الهيمنة الأمريكية منذ عهد فرانكلين د. روزفلت. وقد أسمته الصحافة «المبلِّغ العظيم»، ذلك أن موهبته الإعلامية (الخطابية)، وحضوره، ونبرته، تحدث شعوراً وهمياً بالعودة إلى القيم التقليدية (الأسرة والعمل والجوار).

لم يحدث قط أن نوقض الكلام في الليبرالية، بقدر ما ناقضته.سياسة السلطات العامة العسكرية والصناعية والاقتصادية، فالليبرالية الريغانية طرحت نفسها كمناورة نفسية واسعة ترمي، بالموافقة الشعبية عليها، إلى تطبيق الحد الأدنى من تدخل الدولة في الشؤون الاجتماعية، والأقصى من تدخلها في الشؤون العسكرية. فالليبراليون الجدد يرون أن «الإفراط» في «دولة الرفاه» يقابله تخصيص أقل مما ينبغي بالنسبة للقطاعات المتقدمة

المتمرسة بالبحث العسكري والتي تستلزم استثمارات يتأخر مردودها. فبين العامين ١٩٨١ ــ ١٩٨٤، خصص ١٠٠٠ مليار دولار للدفاع. وفي السنوات ١٩٨٥ ــ ١٩٨٩، أعلن الرئيس الأمريكي عن برنامج عسكري آخر يكلف ١٠٠٠ مليار دولار.

في التاريخ الأمريكي، لم تبلغ قط النفقات الفدرالية (ما عدا التحويلات الاجتماعية) ما بلغته في عهد ريغان، فقد وصلت إلى نسبة ٢٤٪ من صافي الدخل الوطني في العام ١٩٨٤.

منذ خطبة الرئيس ريغان، بشأن مبادرة الدفاع الاستراتيجي، والولايات المتحدة تتبع ثلاث استراتيجيات أساسية مدفوعة باستراتيجية الوسائط العسكرية:

١ ــ استراتيجية الردع النووي، المتمثلة بالرد على الخصم بضربات انتقامية مكثفة، وهذه الاستراتيجية في طريقها إلى التجديد.

٢ ــ استراتيجية البحث التكنولوجي التي تتركز على الالكترونيات ــ الانفورماتيك.

٣ ــ استراتيجية الدفاع المباشر، وهي لم تولد بعد، ولم يبد منها شيء.

تعمل هذه الاستراتيجيات الثلاث على التقريب بين التيارات الفكرية الكبرى في الرأي العام الأمريكي.

فإذا كان الإعلان عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي، قد أثار بعض الخلافات بين أنصار الدرع وأنصار السيف، فقد رسخ، على الأخص، إجماعاً واسعاً في الأمة الأمريكية، وأوجد «كتلة وطنية» بجمعه بين أنصار تعزيز الردع النووي وأنصار الدفاع المباشر، ودعاة السلم وصناعيي قطاع الدفاع، هذا «الحلم الأمريكي» ينتشر حسب الإرادة ــ القدرة التي تتوخى القدرة العسكرية والتكنولوجية.

تعزيز الردع النووي

إن إرادة شل قوات المعتدي بالخوف الذي تبثه ردود فعل انتقامية نووية مؤدية إلى نهاية العالم، قد رفدت القوات النووية الباقية في وجه أخطار الضربة المعادية الأولى بأهمية متزايدة. فالضربة الأولى، التي تمنح السبق للمعتدي، تفرض عنوة على أي طرف رادع أن يقضي على كل هامش حرية عمل تتمتع به القوة العسكرية المعادية. والقوات البالستيكية ــ النووية الهجومية والدفاعية وإمكانات الإنذار ستجد نفسها أيضاً داخل المواجهة. والسباق نحو التحسين التكنولوجي وإمكانات الاشتغال وسيره، بدت في الستينيات المحرك الأساسي للتنافس بين الدول العظمى.

عندما دخل رونالد ريغان البيت الأبيض، يدعمه المختصون بالتسليح، كان مقتنعاً أن بلاده ستجد نفسها دون الاتحاد السوفييتي. وفي ٢٣ آذار ١٩٨٣، تذكر قائلاً: «عندما تسلمت مهام الرئاسة، في شهر كانون الثاني ١٩٨١، كنت مذعوراً مما وجدت: طائرات عاجزة عن الطيران وسفناً عاجزة عن الإبحار».

كما أبدى الجنرال بيير غالوا[١٢] الملاحظة التالية: «لا يعرف ما سيكون تصرف الاتحاد السوفييتي، إذا ما استمرت الولايات المتحدة متمسكة بخطة ايزنهاور (٥٠٠ صاروخ في صوامعها، ٢٩ غواصة تطلق

---

(١٢) الجنرال بيير غالوا الاستراتيجي الفرنسي في كتابه «حرب المئة ثانية» فايار ١٩٨٥.

الصواريخ). غير أنه من المتوقع، بمضاعفة هذه الخطة، (١٢٠٠ صاروخ في صوامعها، ٤١ غواصة تطلق الصواريخ) جعل جون ف. كنيدي السوفييت يقررون زيادة ما لديهم من هذه الأسلحة». وعلاوة على ذلك، وبفضل إسقاطات البرنامج الفضائي الذي طرحه بعد صدمة القمر السوفييتي سبوتنيك، فقد قرر صناعة الصاروخ ذي الرؤوس المتعددة الموجه كل منها على حدة (ميرف)، والذي ضاعف عدد الأهداف التي تستطيع القوات الاستراتيجية الأمريكية ضربها. لكن عدد الأهداف العسكرية في الاتحاد السوفييتي ارتفع، من ٢٠٠ هدف إلى ٢٠٠٠ هدف في العام ١٩٥٩، وإلى ٢٥٠٠٠ في العام ١٩٧٤، وإلى ٤٠٠٠٠ هدف في العام ١٩٨٢.

إن توسيع البنتاغون لمخطط الأهداف، قابله تحقيق السوفييت، بدءاً من العامين ١٩٧٤ــ١٩٧٥، لتقنية الـ «ميرفاج» (الصواريخ المتعددة الرؤوس النووية)، وكذلك جهود تسليحية أيضاً في جميع الاتجاهات، ثم بين العامين ١٩٧٥ــ١٩٨٥، صنعت الولايات المتحدة ٢٧ غواصة هجومية، والاتحاد السوفييتي ٦١ غواصة، أما الغواصات القاذفة للصواريخ، فقد صنعت أمريكا منها اثنتين، والاتحاد السوفييتي زهاء ٦٠ بما فيها «الاميرال غورشكوف».

في أثناء مفاوضات سالت للعام ١٩٧٢، كان نيكسون وكيسنجر يريان أن الاتحاد السوفييتي يبذل قصارى جهده للحاق بالولايات المتحدة في

مجال أكثر التكنولوجيات تقدماً. وفي العام ١٩٨١ كان ريغان يرى أن الاتحاد السوفييتي قد تفوق في المجالات كافة.

إن التقليص البطيء لاعتمادات الميزانية العسكرية الأمريكية، بين العامين ١٩٧٢ ــ ١٩٨٠، قد زاد إمكان النيل من القوات المركزية الاستراتيجية الأمريكية، وهذا ما نجم عن ثورة مضاعفة في استراتيجية الوسائط منذ العام ١٩٧٥. فالثورة الأولى تتعلق بالتوصل إلى دقة إطلاق الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات. والثانية تنصب على قدرة إصدار الإنذار شبه الآني، وعلى الدفاع المضاد للصواريخ.

إن زيادة دقة الأسلحة البالستيكية، قد قلبت خطط العمليات وفاعلية سياسات الردع لدى الدولتين العظميين. أما المحيد (الانحراف) الدائري المتوقع للصاروخ بيرشينغ ٢ فقد ارتفع إلى ٤٠ متراً بالنسبة لهدف يقع على بعد ١٨٠٠ كم. وهذا المحيد الدائري المتوقع يبلغ في الصاروخ التكتيكي السوفييتي س س ــ ٢٣ نحو ٣٠ متراً بالنسبة لهدف يقع على بعد ٥٠٠ كم. إن زيادة سلاسل الصواريخ السوفييتية الدقيقة (الصاروخ س س ــ ١٨ القادر على حمل من ١٠ إلى ٣٠ رأساً؛ الصاروخ س س ــ ١٩، الصاروخ س س ــ ٢٤، الصاروخ س س ــ ٢٥) منذ أن ظهرت جعلت من الممكن إصابة مواقع الصواريخ المخبأة داخل صوامعها الاسمنتية.

يرى بول نيتز والجنرال جون دبليو. فيسي رئيس قيادة الأركان المشتركة

في الولايات المتحدة، أن الاتحاد السوفييتي قادر على تدمير ٧٥٪ من الصوامع، والصواريخ التي تضمها في داخلها. وبذا تصبح التركيبة الثابتة للردع النووي الاستراتيجي الأمريكي معرضة للإصابة وقد فقدت مناعتها. وإن استبدال جزء من هذه الصواريخ بصواريخ جديدة م اكس لم يحل مسألة إمكان إصابة الصوامع.

أدت الثورة في ميدان دقة الإصابة إلى اتخاذ قرار بإجراء تجديدات واسعة للثالوث الاستراتيجي الأمريكي بدءاً بالتكنولوجيات المتقدمة التي تزيد القدرة على خرق الأراضي المعادية وضربها. وهذه المناورة الهجومية الواسعة تنصب على الصواريخ م اكس، والقاذفات الاستراتيجية ب ـ ١ ب[١٣] الصعبة الاكتشاف، والتي ستحل محل القاذفات القديمة ب ـ ٥٢. وهذه القاذفات الأخيرة قد تناولتها مشاريع التجديد لترفع من فاعليتها، فأضيفت إليها الصواريخ الجوالة التي تفوق سرعتها سرعة الصوت، وهي من النوع «الخفي» الذي يجعلها صعبة الكشف بالرادارات السوفييتية. أخيراً، تم الإسراع بتنفيذ برنامج الغواصات ترايدنت، ويتوقع أن يصنع منها عشرون غواصة في التسعينيات، وتزود بصواريخ ترايدنت د ٥،

---

(١٣) ثبت أن هذه القاذفة لم تكن في مستوى الطموحات الأمريكية بسبب مواصفاتها المتدنية وعدم كفاءتها. انظر مقال «القاذفة الأمريكية الجديدة»، صحيفة البعث السورية، تاريخ ١٩٨٨/٩/٧. (المترجم)

التي قد يبلغ حيدانها (انحرافها) الدائري المتوقع، نحو مئة متر على مسافة تبعد ٩٠٠٠ كم.

أما البحث عن الخرق المباشر والهجوم غير المباشر، فكان رداً على انعدام التوازن الاستراتيجي الناجم عن الدقة، إنما، نظراً للعجز عن إيجاد أجهزة كافية لحماية صوامع الصواريخ والعناصر الاستراتيجية المتمركزة على الأرض، فإن الرئيس ريغان لجأ إلى الأنظمة الدفاعية المباشرة وغير المباشرة. فعزز أولاً نظام سي ٣ ي الاستراتيجي (نظام القيادة والتحكم والاتصالات والاستخبارات).

في المقام الثاني، يتوقع أن تقام، بالقرب من صوامع الصواريخ م اكس، أجهزة رادار متعددة ذات مسح الكتروني، متصلة بصواريخ معترضة قادرة على تدمير الرؤوس النووية المعادية على بعد ٢٠ كيلومتراً من هدفها.

ترمي المبادرتان المذكورتان، إلى إعادة التوازن للردع النووي بين دولتين قويتين، بوساطة عنصر جوهري غير مستقر. وفي مبارزة الاستراتيجيات المتكاملة القائمة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، فإن الرغبة في السيطرة على الفضاء، تفرض نفسها تدريجياً كعنصر حاسم في القدرة الرادعة. لقد أصبح الفضاء الورقة الرابحة الأساسية إزاء خطر الضربة المعادية الأولى.

هكذا أعدت في داخل الاستراتيجية المتكاملة، استراتيجية إضافية

مكملة للردع النووي القائم على حالة الدفاع المباشر . وفي السباق نحو التفوق ، تراقب الأرض من الفضاء . غير أن الفضاء الذي يزداد عسكرة أكثر فأكثر ، يراقب من الأرض ، والمواجهة ، بعد ظهور استراتيجية الوسائط الفضائية ، القائمة على حيوية التفوق ، قد اتسعت على الرغم من مفاوضات الاتفاقات الاستراتيجية حصراً ، سالت ١ ، سالت ٢ ، آ ب م . وهذه الاتفاقات بالنسبة للولايات المتحدة وللاتحاد السوفييتي ، طرحت كطرائق للتحكم بالأسلحة . والاتفاق على المراقبة المتبادلة للأسلحة بين البلدين ، يجب أن يعيد الاستقرار إلى استراتيجية الردع النووي من القوي إلى القوي ويعززها ضمن الرؤية المستقبلية للدولتين العظميين ، اللتين تنشدان حكم العالم حكماً متعادلاً ومتكافئاً .

لكن ظهر منذ العام ١٩٥٥ ، أن الوسائط الفضائية الدفاعية المباشرة التي يراها زعماء الولايات المتحدة مكملاً لاستراتيجية الردع التي لا تزال في المهد ، وعامل استقرار فيها ، ينبغي لها (أي الوسائط) أن تحدث استراتيجية عسكرية عامة تختلف طرائقها ووسائطها اختلافاً جذرياً .

كانت هناك دواعٍ اقتصادية وتكنولوجية ، حتى العام ١٩٨٣ ، تجعل كفة الميزان تميل لصالح استراتيجية الدفاع المباشر التي يرغب فيها العسكريون .

في الولايات المتحدة ، في العام ١٩٥٠ ، كانت تقنيات الدفاع تعمل على تشغيل فرق علمية موهوبة . وكان هناك عدد من مكاتب الدراسات مثل

مكتب « بل تلفون » (الجنرال والتر دورنبرجر تسلم منصب نائب الرئيس في مكتب بل ايروسيستمز)، ومخبر كورنيل للطيران، كونفير، نورث امريكان، لوكهيد، وهي جميعاً تقوم بالبحوث لصالح القوات البرية والبحرية والجوية، ولقد تلقى البنتاغون بعض مشاريع منظومات الأسلحة، التي ترمي إلى إرغام الاتحاد السوفييتي على التخلي عن المنافسة البالستيكية ــ النووية. وقد تبين أن تكاليف هذه المشاريع باهظة جداً، قياساً بفاعليتها الضعيفة، فبدافع عقلنة اختيار الأسلحة، كانت المجموعات العاملة في هذا المجال في ظل رئاسة ايزنهاور وكنيدي ونيكسون ثم كارتر، تضرب عنها صفحاً لغلائها، باستثناء تكنولوجيا تعزيز الردع النووي من القوي إلى القوي. وقد تطورت هذه التكنولوجيا منذ أن انصبت على مراقبة الخصم ورصده، بل أيضاً على القدرة على الإنذار والاتصال بالقوى الاستراتيجية المركزية.

غير أن هذه المجموعات المذكورة أيدت البراهين الدالة على أن الصاروخ «غاب» متخلف استراتيجياً، وهو الصاروخ الذي كان العسكريون يدافعون عنه، وهم أنصار استراتيجية الدفاع المباشر، وخصوم اتفاقات سالت، و(آ ب م).

واصل الرئيس ريغان، منذ انتخابه، شأنه شأن سابقيه، استراتيجية الردع النووي. بيد أنه، ابتداء من العام ١٩٨٣، أصبحت استراتيجية الدفاع المباشر ممكنة بفضل تعزيز الردع.

منذ العام ١٩٨١، حسن رئيس الولايات المتحدة، بادئ ذي بدء،

وسائط القيادة والتحكم والاستخبارات (سي ٣ ي)، عبر النظام العسكري العالمي للقيادة (دبليو، دبليو. م. سي. سي. س) الذي يضم الاتصالات الاستراتيجية والنقل بين مراكز القيادة والوحدات الأرضية والبحرية والجوية. وفي الظروف كلها، على هذه الاتصالات أن تستمر لتضمن مصداقية وسائط الردع التي تعد كلاً لا يتجزأ.

بين العامين ١٩٥٧ ــ ١٩٨٠، نفذ ٤٢٧ قمراً صناعياً أطلقتها الولايات المتحدة بعض الوظائف العسكرية، وذلك من أصل ٧٦٠ قمراً صناعياً، أي بلغت النسبة ٥٦٪، وفي الاتحاد السوفييتي، من أصل ١٣١٧ قمراً صناعياً تم إطلاقها، كان ثمة ٨٩٠ قمراً صناعياً عسكرياً (أي بنسبة ٦٧٪). وللمرة الأولى، في العام ١٩٨٢، تتجاوز الميزانية الفضائية العسكرية الأمريكية، ميزانية وكالة ناسا (٨ر٥ مليار دولار مقابل ٧ر٥ مليار دولار). وكانت حصة الميزانية الفضائية الأمريكية ترتفع، استجابة للمهام العسكرية، بنسبة ١٠٪ من المجموع. ويبدو الوضع مشابهاً في الاتحاد السوفييتي. إن أقمار الاستطلاع التصويرية، والأقمار الرادارية المستخدمة للإنذار المبكر، وأقمار الاتصالات عن بعد والملاحة تكوِّن حلقات معقدة في مناورة عملياتية للمراقبة وقيادة القوات والأعتدة الاستراتيجية.

بعد ذلك، سعى الرئيس الأمريكي لتعزيز حماية صوامع الصواريخ (حفرها الاسمنتية).

في العام ١٩٥٨، طلبت وزارة الدفاع في الولايات المتحدة من وكالة

البحث في المشاريع المتقدمة (آربا) ميزانية جميع التكنولوجيات الفضائية، التي تتيح حماية الصوامع المذكورة، وقد أهملت الدراسات التي وجهتها وترأستها شركة لوكهيد. والعقول الالكترونية لم تكن تتيح آنذاك تحويل المعلومات التي تقدمها الأقمار الصناعية إلى معطيات للرمي. ونحو العام ١٩٦٣، أعدت الولايات المتحدة مشروعاً للاعتراض الفضائي وهو القمر الصناعي المعترض (سانت)، بيد أنها عدلت عنه بعد ذلك بقليل.

في ١٩ تشرين الأول ١٩٦٨، أطلق السوفييت القمر كوزموس ٢٤٨، ووضعوه في مدار يقع على ارتفاع ٥٠٠ كم. وبعيد ذلك، أطلقوا قمراً ثانياً كوزموس ٢٤٩، وأرسلوه لاعتراض، كوزموس ٢٤٨، وفي العام ١٩٧٠، ثم ١٩٧١، جدد الاتحاد السوفييتي عمليات الاعتراض هذه.

في العام ١٩٦٧، صممت الولايات المتحدة نظاماً للصواريخ الدفاعية التي تنطلق من الأرض، وصنعت القوات البرية نظاماً مضاداً للصواريخ يعمل بالمسح الالكتروني، وهو الطراز نايك ـــ اكس. هناك الصواريخ سبرنت القصيرة المدى، والصواريخ سبارتان للاعتراض البعيد، وقد تمت تجربة هذين الطرازين. وتقدر كلفة نظام للحماية المحدودة أيضاً بنحو ٣٠ مليار دولار. وبين العامين ١٩٦٩ و١٩٧٢، أجرت الولايات المتحدة تجارب على صواريخ دفاعية أطلقت من جزيرة كواجلان، وكانت النتائج مشجعة. غير أن انفجار الحشوة النووية المنقولة بالصواريخ الدفاعية على ارتفاع عالٍ، قد يقطع اتصالات «سي ٣ ي» ويشل نظام الدفاع.

وبين العامين ١٩٧٢ و١٩٧٦، بعد إنجاز اتفاقات «سالت» و«آ ب م»، كف الاتحاد السوفييتي عن كل تجربة للاعتراض. كذلك، في العام ١٩٧٥، فككت الولايات المتحدة الجهاز الدفاعي سافغوارد، المتحدر من النظام نايك ــ اكس، المخصص لحماية صوامع الصاروخ مينوتمان، على الرغم من كلفته البالغة ٥ مليارات دولار.

غير أن الاتحاد السوفييتي، استأنف في ١٦ شباط، مهامه المضادة للأقمار الصناعية. أما بالنسبة للبنتاغون، فقد أصبحت المجابهة في الفضاء أمراً لا مفر منه. إذ لا يمكن للولايات المتحدة أن تسمح بالتفوق عليها في الفضاء الكوني. لذا قررت الإسراع في بحوث الأسلحة الدفاعية.

في ١٠ حزيران ١٩٨٤، نجح صاروخ معترض تابع للقوات البرية الأمريكية، يبلغ طوله ٥٠ر٢ م، في الاصطدام المباشر بمركبة عودة منفصلة عن صاروخ بالستيكي طراز مينوتمان. وجرى الاعتراض ضمن إطار برنامج «هومينغ أوفرلاي اكسبيرمنت» الذي بدأ في شباط ١٩٨٣.

قدم رئيس الولايات المتحدة الدليل للسنوات العشر القادمة على تحسين القدرة على بقاء القوات الاستراتيجية المركزية الأرضية.

فإذا كان الردع النووي قد ظل محمياً مصاناً، فهذا لأنه استفاد منذ العام ١٩٨٣ من الإسهامات التكنولوجية لمبادرة الدفاع الاستراتيجي.

استراتيجية التجديد التكنولوجي

مبادرة الدفاع الاستراتيجي، الاستراتيجية الجديدة للتقدم التكنولوجي أصبحت السلاح الأساسي في المواجهة.

في مناقشات الميزانية في الكونغرس الأمريكي، أعلن عسكريو البنتاغون[١٤] أن هدفهم الأولي يتعلق بالمصلحة الوطنية والضرورة العسكرية. وأضافوا أن «أكثر المهام أهمية أمام وزارة الدفاع، هي مهمة مساعدة الصناعة الأمريكية». ثم بعد ذلك تأتي الإسقاطات التجارية.

كانت مبادرة الدفاع الاستراتيجي موضوع إعداد طويل.

فبادئ ذي بدء، وفي الأول من أيلول ١٩٨٢، أنشئ قسم جديد مستقل في القوى الجوية الأمريكية: قيادة الفضاء. ويتضمن دور هذا القسم الإشراف على عمل مجموع جوانب النشاط المتعلقة بالبرامج العسكرية الفضائية والأقمار الصناعية وتنسيق أعمالها منذ ذلك الحين وحتى نهاية الثمانينيات. والبحث العسكري يجب أن يستمر لأمد بعيد على صعيد الاستراتيجية العسكرية. ومنذ العام ١٩٨٢، بدأت قيادة الفضاء الإشراف على شبكة عالمية لمراقبة الفضاء، وفي الاتحاد السوفييتي هناك النوع نفسه من التنظيم.

---

(١٤) جان ميشيل سوسوا «الولايات المتحدة، الدعم الفدرالي للصناعة»، ملاحظات ودراسات، التوثيق الفرنسي، رقم ٤٧٨٩، العام ١٩٨٥.

كلف الرئيس ريغان، بعد ذلك، مجموعتي دراسة تدعيان هوفمان وفليتشر، ببحث إمكانات تحقيق برنامجه الدفاعي المضاد للصواريخ البالستيكية (ب م د). فكان على المجموعة الأولى تقويم المتطلبات الاستراتيجية للمشروع (ب م د) على صعيد السيطرة على الأسلحة. وعلى المجموعة الثانية، برئاسة جيمس فليتشر، وهو رئيس سابق لوكالة ناسا، أن تحدد أكثر التكنولوجيات ملاءمة لتنفيذ أسلحة فضائية (ب م د) داخل إطار دفاع متعدد المستويات أو الطبقات. فضلت مجموعة فليتشر طرائق الاعتراض بحزم أشعة من الطاقة الموجهة بوساطة اللازر أساساً، ويرجع هذا الخيار إلى مساهمة بعض العلماء العاملين في ثلاثة مخابر كبرى للبحث في الأسلحة ذات الطاقة الموجهة: لوس الاموس، سانديا، ومركز لورنس ليفرمور، الذي يديره البروفسور ادوار تللر. وقد عرف تللر رونالد ريغان منذ مدة طويلة، عندما كان حاكماً لولاية كاليفورنيا، وزار مخبر لورنس ليفرمور. وتللر هو الذي أوصى رئيس الولايات المتحدة، صديقه، بتعيين صديقه جورج كيورث مستشاراً علمياً للبيت الأبيض.

كانت لجنتا هوفمان وفليتشر قد أعلنتا موقفهما، جزئياً، بتأييد مشروع (ب م د). ومجموع أعمالهما المنجزة تحت قيادة وزير الدفاع الأمريكي وليم كلارك أدت إلى نتيجتين، أولاهما التشكيك تقنياً بإمكان صنع نظام (ب م د). وأدت الثانية بعدها إلى أن حساب تكاليفه الحقيقية، في مرحلة البحث، أمر من المحال.

على الرغم من وطأة الشكوك هذه، التي أبدتها توجيهات مذكرة قرار الأمن الوطني (ن س د م ١١٩)، فقد طرح الرئيس ريغان برنامج مبادرة الدفاع الاستراتيجي. وعلى هذه المبادرة أن تحقق مهامَّ ثلاثاً هي:

ـــ تحديد هوية البحوث بغية التعجيل بها.
ـــ تقويم الفاعلية المستقبلية لأنظمة الدفاع المضاد للأسلحة البالستيكية (ب م د)، القائمة على التجديدات التكنولوجية.
ـــ تحديد إمكان صناعة دفاع مباشر حقيقي.

«المفهوم الاستراتيجي» لمبادرة الدفاع الاستراتيجي

تشمل مبادرة الدفاع الاستراتيجي الفوائد التي قدمتها في الماضي، البرامج الأمريكية الضخمة ووسائط تخطيط عسكري للبحث. وهذه المبادرة التي شكلت عسكرياً تحت إمرة زعيم البيت الأبيض، قد بدت استراتيجية مجددة للتطوير المتسارع للقوة الأمريكية.

في وزارة الدفاع، أسس وزير الدفاع كاسبار واينبرغر في الأول من آذار ١٩٨٤، مكتب (دائرة) مبادرة الدفاع الاستراتيجي (س.د.ي.او). وقد وضعت هذه الإدارة تحت سلطة وحيدة، يمثلها

جنرال في القوى الجوية هو جيمس ابراهامسون، الذي كان يدير برنامج المكوك الفضائي لوكالة ناسا. ويصفه برنار شابير في كتابه «أبناء اريان» بأنه عبقري، وبأنه منظّم يوازي فون براون والباحث السوفييتي كوروليف. فهذا الجنرال يبرهن، كما كتب برنار شابير: «على أن الضرورة القصوى لبرامج كبرى (فضائية أو غيرها) تفرض أن يديرها أشخاص ذوو مكانة رفيعة إلى أقصى حد على الصعيد التقني، بل أشخاص يتمتعون بقدرة خارقة ذات بعد إنساني خارق»[(١٥)].

كان مكتب مبادرة الدفاع الاستراتيجي مؤسسة صغيرة، يستخدم نحو ٨٠ شخصاً، ويجمع تحت سلطته وحدها جميع مشاريع البحث ذات التكنولوجيا الرفيعة، التي كانت موزعة سابقاً بين إدارة الدراسات المتقدمة، والجيش الأمريكي، والقوى الجوية الأمريكية، إلخ... وبدءاً من العام ١٩٨٥، وضعت تحت تصرف هذا المكتب اعتمادات خاصة من الموازنة (تبلغ ١٫٤ مليار دولار) وقد استأثرت بحوث الالكترون ـــ الانفورماتيك بأكبر حصة منها.

في نيسان ١٩٨٥، وبمناسبة مؤتمر المعهد الأمريكي لعلوم الطيران

---

(١٥) برنار شابير «أبناء اريان» بلون، ١٩٨٦.

والملاحة الفضائية، قدم الجنرال جيمس ابراهامسون مبادرة الدفاع الاستراتيجي على أنها «مفهوم جديد كل الجدة»[(١٦)]، واستثماراتها لمدة خمس سنوات ١٩٨٥ ــ ١٩٨٩ قد ترتفع إلى ٣٢ مليار دولار.

طور مكتب مبادرة الدفاع الاستراتيجي إجراء لتحليل المهام، ومجموعة لتحليل التكاليف، ونموذجاً لتحليل فاعلية أنظمة مبادرة الدفاع الاستراتيجي، ومجموعة عمل موحدة لجمع المعلومات عن تقويم التهديد الذي سيواجه أنظمة مبادرة الدفاع الاستراتيجي في المستقبل.

منذ أن أنشئ مكتب مبادرة الدفاع الاستراتيجي، طرح برنامج «الدراسات ــ الأنظمة» تبعاً لسياق تعاقدي. فقد أعلن جيمس ابراهامسون قائلاً: «أبرمنا عقوداً للدراسات مع فرق صناعية، بشأن مختلف التصاميم والهندسات لمنظومات أسلحة الدفاع الفضائي المضاد للصواريخ». ثمة معاهد أمريكية للبحث دخلت المنافسة مع الصناعيين، ليس بهدف الربح المادي، كما أعلن رئيس مبادرة الدفاع الاستراتيجي (أمام الكونغرس) مضيفاً: «هذه المعاهد قد أنجزت حالياً الدراسات التي أنجزها المتعاقدون،

---

(١٦) مشاكل اقتصادية واجتماعية، العدد ٥٢١ ــ ٥٢٢، التوثيق الفرنسي.

إنما على نطاق أوسع في جوانبها السياسية والعملياتية». وعلاوة على هذا «فالتجمع الجماعي بكامله» قد شارك بغية «الإتيان بأفكار جديدة بخصوص الأهداف القريبة الأجل، بل والبعيدة أيضاً». وقد ضمت الدراسات الجامعية المنصبة على «مصادر الطاقة الفضائية» معهد البوليتكنيك في نيويورك، وجامعة ولاية نيويورك، وجامعة ولاية آلاباما وجامعة ولاية تكساس، كما أجرت سبع مجموعات أخرى بحوثاً في المواد المركبة والالكترونية، وفي وقود الصواريخ والانفورماتيك البصري، والحاسبات الالكترونية، وتكنولوجيا «الدروع» المخصصة لحماية الأقمار الصناعية من الأسلحة ذات الطاقة الحركية، وذات حزم الأشعة الموجهة.

منذ العام ١٩٨٠، ازداد تمويل البنتاغون للبحث الجامعي بنسبة ٧٤٪.

درس مكتب مبادرة الدفاع الاستراتيجي كذلك مشروعاً لمولد فضائي نووي، ساهمت فيه وكالة ناسا ووزارة الطاقة. أخيراً، طورت مع وكالة ناسا دراسات الإمداد (اللوجستيك) الفضائي. وسيبنى مكوك فضائي رابع للعام ١٩٩١.

إن الهدف من كل ذلك هو ــ طبقاً لتوجيهات الرئيس ريغان ــ إقامة «نظام وطني للنقل الفضائي» قادر على «الحفاظ على التفوق الأمريكي

في الفضاء» . وهذا يتطلب من الجنرال ابراهامسون تقليص تكاليف مجموع وسائط النقل إلى حد كبير جداً .

كما نجد أن مبادرة الدفاع الاستراتيجي تتيح ما يلي :

ــ تركيز مشاريع البحث في مؤسسة وحيدة .
ــ توجيه الطرائق والبرامج وإعدادها .
ــ إثارة المنافسة بين فرق البحث .
ــ جمع أعمال البحث من المخابر والجامعات والمشاريع الصناعية .
ــ التخطيط لأعمال البحث خلال زمن طويل مع تحديد الأهداف ، وهذه الأهداف ذاتها مبرمجة في أجهزة الوسائط العسكرية والتكنولوجية .

في كانون الثاني ١٩٨٥ ، وصف الرئيس ريغان مبادرة الدفاع الاستراتيجي بأنها « مفهوم استراتيجي » خطط على ثلاث مراحل :

ــ لأمد قريب ، وهي مرحلة بحث ، عليها أن تقدم عناصر اتخاذ القرار .
ــ المرحلة الانتقالية ، وتمتد على مدى خمسة عشر عاماً ، وعليها أن تؤدي إلى تحقيق بعض النماذج الأصلية .
ــ المرحلة النهائية ، ويتوقع أن تمتد على مدى عشرين عاماً ...

وبحركة الأفعال وردود الأفعال، تمثل مبادرة الدفاع الاستراتيجي استراتيجية تتيح جمع التجديدات العلمية والتكنولوجية. ولأن مبادرة الدفاع الاستراتيجي، أفضل من التخطيط العاجز عن التنبؤ بالحوادث غير المتوقعة، فإنها، بوصفها «مفهوماً استراتيجياً» تحدد هوية التكنولوجيات لتعجيل طاقات التقدم في أمريكا، من خلال الجهود التي تم تجميعها وتوحيدها حسب أهداف عسكرية.

مبادرة الدفاع الاستراتيجي
و«استراتيجية التصميم»

يوزع مكتب مبادرة الدفاع الاستراتيجي قطاعات البحث على خمسة برامج تكنولوجية، قسم كل منها إلى مشاريع ــ عددها الكلي ٣٢ ــ تضم سلسلة من الأهداف.

١ ــ البرنامج ساتكا (مراقبة الهدف، الاستيلاء عليه، ملاحقته، تقدير إمكان تدميره):

- جمع معطيات متعلقة بالأثر الراداري (ظهور الهدف على شاشة الرادار)، من أشعة تحت الحمراء، ولازر صادرين عن الصواريخ البالستيكية، والمركبات العائدة (الرؤوس المنفصلة عن الصواريخ البالستيكية وهي على وشك مهاجمة الأهداف) والأجسام المساعدة على الاختراق التي يطورها الاتحاد السوفييتي.

- تحسين التصوير الراداري واللازري إلى أقصى حد.
- الاختبارات الرامية إلى تحديد تصميم أجهزة المراقبة والملاحقة بوسائط رادارية بصرية.
- معالجة الإشارات آنياً، وتقسية الدارات، إلخ....

٢ ـــ البرنامج «د. اي. دبليو.» (أسلحة الطاقات الموجهة):

- تحديد الأجهزة الفرعية الأساسية الداخلة في تركيب الأسلحة التي تعمل بالطاقة الموجهة والموضوعة في الفضاء أو على الأرض واختبار هذه الأجهزة. وكذلك أيضاً بالنسبة للأجهزة الفرعية الأساسية المستخدمة في التحكم بحزم الأشعة، والعدسات الكبيرة الحجوم، والمرايا المناوبة، والعدسات التكييفية إلخ...

٣ ـــ البرنامج «ك. اي. دبليو» (أسلحة الطاقة الحركية):

- يتعلق هذا البرنامج بالتكنولوجيا اللازمة للإعتراض ولتدمير الجسم العائد، في مرحلته النهائية، أي في نهاية مرحلته البالستيكية، ويتم التدمير بصاروخ ذاتي التوجيه يحمل حشوة تقليدية، أو قذائف ذات سرعة مفرطة.

٤ ـــ البرنامج «س. سي. ب. م.» (قيادة الأجهزة/إدارة المعركة):

- تطوير التكنولوجيا التي تتيح قيادة أجهزة الدفاع المضاد للصواريخ

البالستيكية، والعقول الالكترونية العالية المواصفات، والحواسب الالكترونية، والتحكم بها وتصميم هندساتها.

٥ ــ البرنامج «س. ل. ك. ت» (البقاء، التدمير، التكنولوجيا الأساسية):

• يستهدف جميع التكنولوجيات التي تتيح تعزيز فرص البقاء لعناصر جهاز الدفاع، وتقويم الإجراءات المعاكسة، وتلبية حاجات الإمداد (اللوجستيك) (الذي يشمل إنتاج الطاقة في الفضاء والنقل الفضائي الثقيل).

إن المجالات التي تطورها مبادرة الدفاع الاستراتيجي أكثر من سواها، والمتعلقة بالسلاسل البنيوية للتقدم التكنولوجي العسكري والصناعي، هي:

ــ الالكترونيات الميكروية الشديدة السرعة، والمنمنمة جداً، وهي قوية وذات مواصفات عالية وعناصرها من زرنيخيد الغاليوم.

ــ الانفورماتيك، الأجهزة الموزعة وغير المركزية، الحاسبة الالكترونية التي تتجاوز التوجيهات والأوامر فيها المليون.

ــ الذكاء الاصطناعي، للمساعدة في قيادة الاشتباكات، وللمراقبة الآلية.

ــ البصريات ــ الالكترونية (الاوبترونيك)، والأجهزة اللاقطة، ومعالجة الإشارات، والتصوير والتوجيه والملاحقة.

ــ التقنيات الرادارية والرادارية اللازرية (ليدار) التي تتيح الكشف من مسافة بعيدة، وتقنية دراسة المسارات بدقة، وسرّية الأفخاخ.

ـــ الاتصالات عن بعد، حزم الأشعة البصرية.
ـــ اللازرات القوية، والبصريات المتطابقة.
ـــ الهندسة الفضائية.

إن محاور البحث الكبرى هذه، المدارة سابقاً، تدمج جميع مجالات المعرفة العلمية، وتشرك، بدقة قطاعات البحث الفكري، وقطاعات الصناعة، وقطاعات الدفاع. وقد أدت هذه المحاور إلى تطوير استراتيجي «مشترك» على مستوى الأمة الأمريكية.

موازنة مبادرة الدفاع الاستراتيجي

بين العامين ١٩٨٤ و١٩٩٠، سترتفع الميزانية الكلية لمبادرة الدفاع الاستراتيجي إلى ٣٣ مليار دولار. وبعد ثلاث سنوات مالية، كانت الاعتمادات الموافق عليها أقل بنسبة ٢٥٪ من التقديرات الأولية.

يجب العودة إلى موازنة البحث والتطوير (ر.د.) في وزارة الدفاع، لتقدير الأهمية الفعلية لمبادرة الدفاع الاستراتيجي. فوظيفة هذه الأخيرة توجيه مجموع البحث في الولايات المتحدة.

كتب وزير الدفاع الأمريكي في تقريره السنوي للكونغرس للسنة

المالية ١٩٨٦ ما يلي: «العنصر الأساسي في دفاعنا، هو جهدنا في البحث والتطوير».

كذلك، بين العامين ١٩٨٠ و١٩٨٦، تضاعفت ميزانية البحث والتطوير في وزارة الدفاع.

في العام ١٩٨٥، كانت الميزانية الكلية للبحث والتطوير، العامة والخاصة، في الولايات المتحدة، تبلغ نحو ١٠٠ مليار دولار، ٤٠٪ منها للأغراض العسكرية. وهذا المعدل المخصص للبحث والتطوير هو أعلى المعدلات في العالم، ويدل على أن البنتاغون يرسخ نفسه مخطِّطاً ومبرمِجاً استراتيجياً في آن واحد، وذلك في سبيل التجديد التكنولوجي.

في العام ١٩٨٥ أنفقت الدولة الفدرالية إجمالاً على صعيد البحث والتطوير المدني والعسكري ٥٣ مليار دولار.

منذ العام ١٩٨٢، ازدادت حصة ميزانية «الدفاع» في الإنتاج الداخلي الصافي الأمريكي من ٦٪ إلى ٧٪ في العام.

تدل هذه الميزانية بضخامتها على تدخل مباشر وغير مباشر من الدولة في الصناعة الأمريكية. كما أشار إلى ذلك جان ـ ميشيل سوسواس[١٧]:

---

(١٧) جان ـ ميشيل سوسواس «الولايات المتحدة: الدعم الفدرالي للصناعة»، التوثيق الفرنسي، الرقم ٤٧٨٩.

«إن أذون الدفع للمشتريات والبحوث والتطوير متوقع لها أن تزداد بنسبة ١٨٪ سنوياً في مواعيد محددة ... وأكثر من ٣٠٪ من نمو عوائد الإنتاج (ما عدا الخدمات) ستكون بسبب النشاط العسكري، أي ناتجة عن نفقات الصيانة والمشتريات والبحث والتطوير».

في العام ١٩٨٢، بلغت أذون تعهد البرامج والعمل بها ما قيمته ٢١٤ مليار دولار، وهذا ما يعادل بالقيمة الفعلية، زيادة ١٢٪ عن العام ١٩٨١. وفي العام ١٩٨٣، قدرت أذون البرامج بنحو ٢٣٩ مليار دولار. والدولة الفدرالية «تدخلت كمقاول إزاء الصناعيين»(١٨). عن طريق وزارة الدفاع.

يجدر بنا موازنة هذه المعطيات من خلال الاقتراع الذي جرى في العام ١٩٨٦، على إصدار قانون غرام ـــ رودمان هو للينغس، الذي يتضمن هدفه، المتعذر التحقيق، إزالة العجز في الموازنة الفدرالية في العام ١٩٩١، وهذا القانون يوشك أن يجر الركود، وحتى قد يؤدي إلى تخفيض في القيمة المطلقة، لميزانيات دفاع البنتاغون، ابتداء من العام ١٩٨٧(١٩).

---

(١٨) المصدر السابق نفسه.

(١٩) في ٧ تموز ١٩٨٦، ألغت المحكمة الدستورية قانون غرام ـــ رودمان هوللينغس، ومنذ ذلك الحين، أصبح يتوجب على الكونغرس اتخاذ قرار بتخفيض الموازنة، يصدق عليه البيت الأبيض. وفي العام ١٩٨٧، بلغ العجز في الموازنة ٢٢٠ مليار دولار. بسبب تباطؤ التنمية، وعدم تقدير النفقات العسكرية بدقة.

المشتريات العسكرية، التي عجل بها برنامج البحث العسكري في مبادرة الدفاع الاستراتيجي، تكوّن للبنتاغون وسيلة متميزة لتوجيه السياسة الصناعية. وفي العام ١٩٨٥، اشترت وزارة الدفاع أعتدة بنحو ٨٤ مليار دولار.

برامج الشراء تحتل مكانة استراتيجية في تطوير الصناعات المتقدمة. وفي استراتيجية الوسائط التي يؤخذ بها لمواجهة الاتحاد السوفييتي، تكمن مناورة التفوق في امتداد التجديد التكنولوجي إلى الصناعة الأمريكية.

نجم عن ذلك ثلاث فوائد كبرى لصالح الولايات المتحدة هي:

١ ـــ الإدارة العقلانية لعامل الزمن

ترصد وزارة الدفاع بعض الأموال العامة لفترة طويلة، منظمة بشكل برامج بحث مدة كل منها خمس سنوات. ففي الدولة الفدرالية، تكون تعبئة الاقتصاد تبعاً لأهداف الاستراتيجية العسكرية. أما في نظر الصناعيين، فإن ميزانية البحث العسكري تمنح «أمناً وتخطيطاً في الإنتاج يمارس خارج منطق السوق»[٢٠]. فالصناعات الصغيرة والمتوسطة تتلقى بعض الطلبات العسكرية من البنتاغون لصناعة آلات وأدوات ضمن إطار برنامج «القاعدة

(٢٠) جان ـــ ميشيل سوسواس، المرجع السابق نفسه.

الصناعية للدفاع » . والصناعات المتقدمة (أو التكنولوجيا الرفيعة) ، تنشطها وتحفزها المشتريات العسكرية التي ارتفعت إلى ٢٩ مليار دولار في العام ١٩٨٥ ، فالجيش يوجه الاقتصاد ويقلص النفقات تجاه السوق الخارجية .

٢ ــ تسريع الثورة التكنولوجية ، مناورة أساسية للتفوق

يجذب البنتاغون إليه أفضل الأدمغة للعمل في مخابره . وهناك تأثير واسع لتآزر العلوم ينشأ ابتداء من مخابر صنوف الأسلحة الأربعة ، ومن المخابر الوطنية الكبرى ، ومن الجامعات ، ولا سيما من المشاريع الصناعية الكبرى ، التي تعمل في مجال الالكترون ــ الانفورماتيك والصناعات الجوية الفضائية . وقد أصبحت المشاريع والمخابر والجامعات أدوات قوة ، لها من الأهمية ما للقوات العسكرية ذاتها .

إن القطاعات الصناعية التي تطور التكنولوجيات المشتركة ، في الدفاع المضاد للصواريخ ، مدعومة دعماً خاصاً : فالصناعة الجوية تلقت ، في العام ١٩٨٣ ، نحو ٧ر٣٠ مليار دولار من الطلبات ، بنسبة تزيد ٢٣٪ عما في العام ١٩٨٢ ، وصناعات الصواريخ تستفيد من مشتريات وزارة الدفاع بمقدار ١ر١٠ مليار دولار .

تتيح نفقات الصناعة الجوية والفضائية تمويل التجديد وتحث على دفع الفعاليات التابعة لها ، مثل صناعة المنتجات البيولوجية والصيدلانية ، والكريستال شبه الموصل .

إن تدخل الجيش المتزايد في الاقتصاد الأمريكي، يدعم قدرة هذا الاقتصاد على الصمود في المنافسة الدولية. وهو تدخل يضمن اندفاعة الصناعات «البارزة» التي تدعم المنتجات الأمريكية لتتقدم على مثيلاتها في الدول المنافسة. والوضع ذاته ينطبق على قطاع الصناعات الالكترونية ــ الانفورماتيكية الحاسم، ففي هذا القطاع، يتلاشى الفرق بين البحث العام والخاص، وتحدد وزارة الدفاع أهداف البحث وتمولها بالتعاون مع الصناعيين المهتمين بالمنافسة العالمية لما لها من إسقاطات مستقبلية. وبرنامج «ف. هـ. س. ي. سي» (الدارة المتكاملة ذات الحساسية العالية جداً) للمعالجات الميكروية ذات السرعة الكبيرة، الذي يموله البنتاغون، يتوخى الحصول على تقدم فاعليته بنسبة ١٠٠٪ في أقل من عشر سنوات، وبالنسبة لصانعي منظومات الأسلحة والعقول الالكترونية، وأشباه الموصلات، فإن السوق محمية لتصنيفها في مرتبة ما يحتاجه «الدفاع». وهذا يعني أن هؤلاء الصانعين يستفيدون من فعل النفوذ القوي لاعتمادات وزارة الدفاع (+١٢٪ سنوياً منذ العام ١٩٨٠).

إن برنامج «ف هـ س ي سي» في مبادرة الدفاع الاستراتيجي ذاتها يميز بعض عمالقة الصناعيين العاملين في حقل الالكترون ــ الانفورماتيك مثل: ت ر دبليو، وستنغهاوس، ي ب م، هيوز، رايتون.

هؤلاء الخمسة الكبار في صناعة الدفاع وجدوا أنفسهم يلتفون حول اتحاد إنتاجي للحاسبات الالكترونية، أنشئ في العام ١٩٨٥، لتنسيق

أعمالهم بشأن الحاسبات الالكترونية . وكانت مشتريات وزارة الدفاع ، للعام ١٩٨٥ ، قد ارتفعت ، إجمالاً ، إلى ٢٦ مليار دولار للحصول على معدات ميكرو ــ انفورماتيك ، وإلى ١٤٫٨ مليار دولار لأعمال البحث .

يمد الرئيس ريغان يد العون للصناعات المتقدمة من أجل تصديرها ، ليخوض حرباً تجارية ضد شركائه التجاريين ، الذين هم حلفاؤه السياسيون ، ولا سيما أوروبا واليابان .

وقد كتبتِ بهذا الصدد لجنة المستشارين الاقتصاديين التابعة للرئيس ريغان، كتبت في العام ١٩٨٣ ما يلي : «يمكن تبرير التدخل ، إذا ما أدى دوراً استراتيجياً ، هو زيادة نفقات التدخل المماثل الذي تثيره حكومات أخرى» . وفي الحرب التجارية ، لا تتميز السياسة الصناعية عن السياسة الدبلوماسية . ثمة حدث جديد ، هو أنه في العام ١٩٨٥ ، تعرض ٧٠٪ من المنتجات الصناعية الأمريكية للمنافسة الدولية ، وذلك أن حكومة ريغان تود أن تغير لصالحها قواعد التبادل التجاري في السوق العالمية .

تشجع مبادرة الدفاع الاستراتيجي على تقارب مختلف الاستراتيجيات في أمريكا وتلاقيها ، وهي التي تتجسد صورتها الرمزية المعروضة في الداخل والخارج بشخصيات : روكي ورامبو أو الصقر الحديدي ، وهذه صور لأبطال الثأر الأمريكي الذين يلجؤون إلى القوة .

٣ ــ يهدف البنتاغون إلى أن يصبح غاية القوة الأمريكية ووسيلتها

إن أكبر البرامج الماضية ، مانهاتان وأبولو ، قد حدَّثت ووسَّعت

كفاءات الدولة الفدرالية. ورؤساء الولايات المتحدة، الجمهوريون والديمقراطيون أداروا استراتيجية متكاملة تتطلب وسائط دفع وتصميم من قبل الدولة في القطاع العسكري.

أحدثت مبادرة الدفاع الاستراتيجي ثورة في مسيرة السياسة. فرئيس الولايات المتحدة يحقق قدر المستطاع من أهداف البنتاغون. وقصدية القدرة العسكرية الإفادة من حقل السياسة. وإن البنتاغون، عندما يطلق مبادرة الدفاع الاستراتيجي، يستفيد من منجزات البرامج الكبرى السابقة. ولا سيما أنه عزز وسائط تدخل الدولة، تبعاً لأهدافه الخاصة. كان غيبير، في زمانه، قد دعا إلى أن تحقق السياسة أمانيه في توحيد القوى المسلحة في الداخل والخارج، والتي هي وسيلة القوة في الدولة.

تحقق توحيد مراكز الدفع والقرار بمبادرة الدفاع الاستراتيجي. وفي الوقت الحاضر، يجمع قطاع الدفاع، في المواجهة، القوى الداخلية كلها، وكذلك قوى التقدم التكنولوجي كلها في المجتمع المدني. لقد امتد تنفيذ برنامج مانهاتان على مدى خمس سنوات، وأبولو على مدى عشر سنوات. أما مبادرة الدفاع الاستراتيجي، فمرحلتاها الأوليتان، يجب أن تدفعا عسكرياً مسيرة تقدم أمريكا التكنولوجي على مدى عشرين عاماً، وفي أفق يمضي بعده في ازدياد مستمر، يرمي الدفاع إلى إخضاع قطاعات واسعة من المجتمع المدني للأهداف العسكرية، فيما وراء دائرة الدولة.

ماذا سيبقى من السياسة، عندما ستقرر بعض منظومات

الأسلحة، من الآن وحتى عشرات السنين، في بضعة أجزاء من الثانية، السلام أو الحرب، وجود الأمم أو زوالها؟...

استراتيجية الدفاع المباشر

يرى مكتب مبادرة الدفاع الاستراتيجي، أنه كان من الضروري، كما يبدو، انتظار خمس إلى سبع سنوات لتحديد هوية تقدم التكنولوجيات واتخاذ قرارات متوقعة للنشر، بينما يجب أن يستغرق ربع قرن من الزمن إنجاز منظومة أسلحة دفاع مباشر قادر على العمل من دون تدخل الإنسان. ويفترض مثل هذا النظام أن يتمكن مجموع تكنولوجيات الالكترون ــ الانفورماتيك من كشف الأسلحة المعادية، وتحديد هويتها وموضعها مميزاً بين الأفخاخ والأهداف الحقيقية، وموجهاً المعركة بدقة. ويجب، كذلك، أن يكون هذا النظام قادراً على ضمان بقائه.

إن الأسلحة المضادة للصواريخ «ب م د» قد أحرزت تقدماً هاماً ضمن إطار برنامج اختبار أوفرلاي، في ١٠ حزيران ١٩٨٤، وقد نشرت الأسلحة المضادة للأقمار الصناعية (آسات)، منذ العام ١٩٥٣، في

قاعدتين مضادتين للأقمار الصناعية (آسات): أولاهما قاعدة الجزيرة المرجانية كواجلان، وثانيتهما قاعدة جزيرة جوهانستورن.

درست ثلاثة طرز من آسات هي: حاملات مينوتمان ٢، المقاتلة ف ــ ١٥ المسلحة بالصواريخ، اللازرات الأرضية.

بعد إجراء تجربتين على أجهزة الدفع والتوجيه في العام ١٩٨٤، أصدر الرئيس ريغان تعليماته في ١٣ أيلول ١٩٨٥ بتدمير قمر صناعي في مدار منخفض بوساطة صاروخ، وقد نجحت العملية وارتطم رأس الصاروخ بالهدف وتحطم من أثر الاصطدام. وقد أطلق هذا الصاروخ، قاتل القمر، من طائرة ف ــ ١٥ ايغل تابعة للقوى الجوية. أما الهدف فكان قمراً قديماً، وتم تدميره على ارتفاع ٥٠٠ كم فوق المحيط الهادي. كان السلاح الجديد آسات مؤلفاً من طابقين، ولا سيما من رأسه، الذي هو مركبة هومينغ المصغرة (م هـ ف)، القادرة على المناورة في الفضاء مستعينة بسلسلة من صواريخ جد صغيرة تحملها في داخلها. الرأس أو المركبة م هـ ف موجهة بلواقط تعمل بالأشعة تحت الحمراء، ومبردة بوساطة التصريد (توليد الحرارة المنخفضة). وتستطيع هذه اللواقط أن تعيّن في الفضاء موضع القمر الهدف.

أخيراً، في ٧ أيلول ١٩٨٦، وضع الصاروخ دلتا على مدارين مختلفين قمرين صناعيين قادرين على التوجه، أحدهما نحو الآخر. وخلال

أربع ساعات، توصل كل من القمرين إلى إجراء تجارب تسديد على القمر الآخر. وبعد ثالث دورة لهما حول الأرض، دمر كل منهما الآخر.

إن دفاعاً فضائياً قادراً على التدخل منذ المرحلة الدفعية للصاروخ البالستيكي المهاجم، يتطلب أسلحة ذات طاقة حركية وذات طاقة موجهة، قاعدتها على الأرض أو منشورة في الفضاء. ويرى البروفسور تللر[٢١] : «أن بعض اللازرات ذات طاقة عالية وقوية الشدة، ولازرات ذات أشعة اكس، أصبحت الآن ممكنة التحقيق، وهي قادرة على توجيه الطاقة المركزة إلى آلاف الكيلومترات، وحتى عشرات آلاف الكيلومترات».

هكذا، يبدو من الملائم أن نميز في العام ١٩٨٦، مرحلتي تنفيذ دفاع فضائي، مختلفتين في غزارة الطرائق والوسائط المتاحة لكل منهما.

في المرحلة النهائية من مسار الصواريخ المعادية، يكون في متناول يد الدفاع المباشر عدد من التكنولوجيات المحكمة آنفاً أو الممكن إحكامها والسيطرة عليها في آجال قصيرة. ويتضمن هذا الدفاع حماية مجالات محدودة المساحة في الولايات المتحدة.

بالمقابل، على الدفاع المباشر الذي يبغي حماية مجموع الأراضي الأمريكية، أن يكشف الصواريخ المعادية ويهاجمها ويقضي عليها منذ

---

(٢١) البروفسور ادوار تللر، «تدخل في الندوة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي»، مشاكل اقتصادية واجتماعية، الرقم ٥٢١ ــ ٥٢٢ التوثيق الفرنسي.

إقلاعها. وهذا الدفاع ينطوي على بعض الشكوك بالمقارنة مع حجم التحدي المعلن.

ثمة شكوك بشأن النفقات، وعدد الأقمار الواجب وضعها في الفضاء وحجمها. ففي ملف «حرب الفضاء» كتبت مجلة «الجيوش»[٢٢] ما يلي: «يمكن إعطاء فكرة عن هذه الكلفة، بالإشارة إلى أن ١٠٠٠٠٠ طن في مدار منخفض (يبعد ٣٠٠ كم)، يضعها المكوك الفضائي (٣٠ طناً من الحمولة النافعة) قد يتطلب نظرياً ٣٣٠٠ إطلاق، تكلف مبلغاً كلياً يبلغ ٣٣٠ مليار دولار: ومكوك واحد يطلق مرتين أسبوعياً يتطلب مدة ٣٢ عاماً».

وشكوك أيضاً، ولا سيما بشأن الإجراءات التي يمكن أن يتخذها الخصم، لتعزيز قدراته الهجومية الخاصة أو لامتلاك أسلحة قادرة على التخلص من دفاع مضاد للصواريخ. وتتيح الصواريخ الجوالة، والصواريخ البالستيكية ذات الرمي المتوتر الالتفاف منذ زمن طويل.

لكن، مهما تكن توقعات دفاع مباشر بعيد، فإن «المفهوم الاستراتيجي» لمبادرة الدفاع الاستراتيجي، يجعل من أمريكا أكبر مختبر للبحث العسكري في العالم.

في مجلة «تايم» عدد الأول من أيلول ١٩٨٥، صرح السكرتير العام

---

(٢٢) مجلة «جيوش اليوم» الفرنسية، عدد حزيران ١٩٨٦، وزارة الدفاع الفرنسية.

للحزب الشيوعي السوفييتي م. غورباتشوف. بخصوص مبادرة الدفاع الاستراتيجي بما يلي: «نحن لا نعدّها برنامجاً للبحث» ومع ذلك أضاف قائلاً: «أما بشأن بحوث علمية من الضروري منعها، فنحن لا نفكر، طبعاً، في العلوم الأساسية، ..... فالمراقبة ممكنة بالاستعانة بالوسائط التقنية الوطنية.....».

بعد تصريح السيد ميخائيل غورباتشوف بشهرين، أعلن معارضته لجميع مراحل البحث في الأسلحة الفضائية، ومنها المرحلة الأولية التي تتم في المخبر.

أصبح من المحال، بعد ظهور مبادرة الدفاع الاستراتيجي كبح جماح البحث وإيقافه عند العلوم الأساسية، وكذلك التحقق في المخابر عن مدى تقدمها.

لقد غيرت مبادرة الدفاع الاستراتيجي حدود المجابهة.

مشكلة الاستراتيجية في العسكرة المتكاملة



بلبلة النظام الدولي

كلمة الرئيس ريغان في ٢٣ آذار تظهر نية حسنة: إسقاط الأسلحة النووية في زوايا الإهمال وإبطال استخدامها.

وعلى الفور بدأت التفسيرات والتأويلات المتناقضة لهذه الكلمة.

فالاتحاد السوفييتي يرى أن مبادرة الدفاع الاستراتيجي تطلق سباق التسلح. وأملاً بإنقاذ الاحتكار الثنائي الذي يمارسه منذ اتفاقات سالت مع الولايات المتحدة، فقد بدأ البحث مباشرة عن مفاوضات قمة جديدة مع واشنطن.

أما الدول الحليفة لأمريكا، أعضاء حلف شمالي الأطلسي، فقد فتحت أمامها آفاق للدفاع غير النووي، تتجاوب وتطلعات الرأي العام فيها. إذ تبدو مبادرة الدفاغ الاستراتيجي أنها تعزز حتى هامشهم الخاص في حرية العمل داخل الحلف.

إن فرنسا، المنعزلة، التي تقيم أمنها النهائي على الردع النووي الموجه من الضعيف إلى القوي، ترى في خطة الرئيس الأمريكي مبادرة جديدة موجهة ضد الردع الفرنسي. أفلا يعزز حديث الرئيس الأمريكي عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي الضغط السوفييتي على القوة النووية الفرنسية؟

أولا يقدم البراهين، في داخل الأحزاب السياسية إلى أنصار المجموعة الأوروبية القدامى، وإلى محبي أمريكا ومناصريها بلا قيد أو شرط؟

يضاف إلى هذا التهديد، في أوروبا نفسها، خطر إضافي هو الإبطاء في بناء أوروبا.

ثمة عدد من الدول الأعضاء في المجموعة الاقتصادية الأوروبية سينضم إلى مبادرة الدفاع الاستراتيجي، وقد أغرته الوعود بعقود التعاون التكنولوجي..

لقد بلبلت خطبة ٢٣ آذار ١٩٨٣ النظام الدولي بمجرد إلقائها، حتى من دون عرض أي وسيلة من وسائل دعم هذه الخطبة.

أما الاستراتيجية العسكرية العامة فقد دشنت شكلاً جديداً من أشكال السيطرة السياسية ـــ العسكرية الخارجية. وذلك بإقدام الولايات المتحدة على ضم القوى الحية في الأمة الأمريكية إلى طاقة القوات المسلحة في الولايات المتخدة، في الحاضر والمستقبل.

ولأول مرة في التاريخ، حتى بلا تدخل قرار الأسلحة، يضع خطاب

استراتيجي توزيعاً للأوراق جديداً، يفرض نفسه على المجتمع الدولي. فالولايات المتحدة تخضع أكثر البلدان تطوراً، على وجه البسيطة، لخدمة أهدافها العسكرية، بعرض شكل شامل من القوة العسكرية ــ التكنولوجية.

فالعسكرة المتكاملة تقيم علاقة تسلط لصالح الولايات المتحدة على الصعيد الدولي. سواء أكانت هذه الدول صاحبة السيادة من حلفائها أم لا.

التفوق الأمريكي على الاتحاد السوفييتي

تعسكرت الدولة السوفييتية منذ تأسيسها. فالحزب الشيوعي ظل يزود الدولة، حتى الحرب العالمية الثانية، بالملاكات السياسية اللازمة لهذه العسكرة. وفي الخارج، وضعت الأحزاب الشيوعية الأجنبية نفسها تحت سلطة موسكو. ثم بعد الحرب العالمية الثانية، في العام ١٩٤٥، بلغ الاتحاد السوفييتي مرتبة قوة عالمية، وبتطويره استراتيجية متكاملة، وجد في اتفاقات سالت عام ١٩٧٢، اعترافاً بدوره ومكانته.

فصعود الاتحاد السوفييتي إلى مستوى القوة النووية والفضائية، منذ الخمسينيات، دفع إلى الأمام، تطور قطاع الفعاليات المرتبطة بالدفاع، وتاريخه في البحث الفضائي، يبدأ في القرن الأخير، وقد أنشأ الاتحاد السوفييتي في لينينغراد، منذ العام ١٩٢٨، مخابر لدراسة محركات الصواريخ التي تعمل بالوقود السائل. وبسرعة كبيرة، أصبح لديه مخابر تضم علماء كباراً مثل فالنتين غلوشكو، صانع محركات الدفع السوفييتية، وفريدريك

تساندر، وسرغيوكوروليف. فالنصر السوفييتي على النازية قد فتح للاتحاد السوفييتي الباب إلى التكنولوجيا الألمانية للصواريخ، وفتح له الآفاق لإنتاج عسكري واسع النطاق للصواريخ البالستيكية.

في نظام الاقتصاد المخطط، يمثل قطاع الدفاع نظاماً نوعياً، تدفعه وتحثه بوضوح الاستراتيجية العسكرية. ويبين كورنليوس كاستوريادس في كتابه «أمام الحرب»[1]، ما يلي: «يمضي كل شيء وكأن المجتمع العسكري كان يشكل مجتمعاً مستقلاً في المجتمع الروسي الكبير». ويتساءل الكاتب عن روسيا: «ففي أي مستوى كانت آنفاً حكماً عسكرياً، أو أليست في سبيلها إلى أن تصبح جيشاً كذلك، لأن الجيش كهيكل اجتماعي، يضطلع قادته الأعلون، بتوجيه المجتمع وقيادته فعلاً؟».

إن قطاع الدفاع المغلق هذا، وصناعاته العسكرية المنظمة بشكل «مشاريع مغلقة»، حسب تعبير نيكيتا خروتشوف، هما كما يستنتج كاستوريادس يعيشان «من الكتمان المطلق الذي يخيم على فعالياتهما وحتى على وجودهما».

فالجيش بمجموعه يفلت من الخلل الوظيفي الذي يشوب المجتمع المدني. وإن البحث والتطوير العسكري، والتكنولوجيات المتقدمة، وأكثر التجديدات العسكرية حداثة، في مجال الاوبترونيك (البصريات —

---

(١) كورنليوس كاستور ياذس، «أمام الحرب» فايار ١٩٨١.

الالكترونيات)، والاتصالات عن بعد، والدارات المدمجة، والمواد التركيبية، لا تفيد القطاع المدني. وإن الرغبة في الحفاظ على السر، تكبح، كما يرى جيرار دوشين[2] : «الابتكار العسكري ذاته، بالحبس الذي يفرضه التكتم على هذه الدوائر، بعزل الملاكات في كل فرع عن الفروع الأخرى، وبالحث على المحافظة على البحث العلمي».

منذ اتفاق سالت في العام ١٩٧٢، كانت الدولة السوفييتية تتسم بصفتين أساسيتين هما أولاً، نمو قدرتها العسكرية المستمر، في الاتجاهات كافة؛ فوسائط المراقبة الفضائية، على الأخص، تتيح لكل من الدولتين العظميين تقويم الحالة الخاصة للقوات العسكرية. وفي العامين ١٩٨١ و١٩٨٣ نشر البنتاغون تقريراً عن القوة العسكرية السوفييتية يشير فيه إلى تعملق المجهود الحربي السوفييتي. وعلى الرغم من صعوبات الاتحاد السوفييتي الاقتصادية، فإن النفقات المتعلقة بقواته المسلحة قد بلغت في العام ١٩٨٣ نسبة ١٥٪ تقريباً من صافي دخله الوطني، فسجلت بذلك زيادة مقدارها من ١٢٪ إلى ١٤٪ بالنسبة إلى العام ١٩٨١، وفي العام ١٩٨٦، كما في العام ١٩٨٥، استهلكت موازنة الدفاع، حسب رأي الخبراء، نسبة ١٥٪ من الموازنة الكلية.

---

(٢) جيرار دوشين «التكنولوجيا الغسكرية والحاجات المدنية في الاتحاد السوفييتي» بابيلون، باريس، العددان ٢ ــ ٣، شتاء ١٩٨٣ ــ ١٩٨٤.

أما السمة الثانية : فهي سيطرة بعض الشخصيات ، في إدارة الدولة ، الذين أنهوا مدة عملهم المهني في صناعة الدفاع السوفييتي وأثبتوا جدارتهم فيها . يضاف إلى ذلك استمرار القيادة العسكرية ذاتها مدة بلغت أقصى الطول . ومما لا شك فيه أن وصول ميخائيل غورباتشوف إلى السلطة قد أسفر ، على الفور ، عن تغيير الأركان العسكرية السوفييتية العليا . فالاميرال غورشكوف ، البالغ من العمر في العام ١٩٨٥ ، خمسة وسبعين عاماً ، ترك منصبه في قيادة البحرية الحربية السوفييتية . ومع ذلك فقد تمكن في الثلاثين عاماً الأخيرة من تزويد الاتحاد السوفييتي بطرادات قاذفة للصواريخ ، وحاملات طائرات ، وغواصات نووية . إن ثبات القيادة شجع على التنفيذ المبرمج والمخطط لأسلحة شديدة التنوع ، إذ عوضت النقص الحاصل في تآزر التكنولوجيات المتقدمة التي حدَّت من عملها الممارسات الصارمة للسر العسكري . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه العوائق ، تسلح الاتحاد السوفييتي بأنظمة من الأسلحة الهجومية والدفاعية على حد سواء . لقد صنع رادارات جديدة (بوشكينو) في مواقع أخرى غير موسكو . وأنتج صواريخ معترضة ذات رأس نووي طراز س هـ ــ ٠٤ ، س هـ ــ ٠٨ ، وأجرى في ساريشاغان تجارب على الصواريخ المعترضة مع الصاروخ التجريبي أرض ــ جو طراز ساكس ــ ١٢ . كما صنع رادارات ملاحقة طراز فلات توين ، ورادارات لتوجيه الصواريخ طراز باون شيوب ذات التصميم القياسي ، الذي يمكن إنتاج عناصره والاحتفاظ بها في المستودع ، ويمكن إخفاؤها وجمعها بسرعة لاستخدامها في نظام واسع لإدارة المعركة . وتقارير

البنتاغون الخاصة بالقوة العسكرية السوفييتية والمنشورة في العامين ١٩٨٤ ــ ١٩٨٥، تصر على انتهاكات موسكو لاتفاقات آ ب م، وسالت، وترى واشنطن أن الاتحاد السوفييتي ينتج مواد مركبة مخصصة للعناصر الأساسية في منظومة دفاعية ضد الصواريخ البالستيكية. وفي الأخص، تأكيد العمل على إنتاج الرادار العملاق كراسنوارسك، في سيبيريا. فهذا الرادار الذي يعمل بالمسح الالكتروني، يقع على بعد لا يتعدى المئتي كيلومتر عن موقع للصواريخ البالستيكية العابرة للقارات س س ــ ١٨ وبالقرب من العديد من مواقع الصواريخ س س ــ ١١. وإنجاز هذا الرادار، الذي كان يتوقع آنذاك، أن يتم في العام ١٩٨٨، قد يتيح القيام بعمليات دفاع استراتيجي، وذلك بإعطائه معلومات، عن الصواريخ المعادية، في مواقع متقدمة، وتوجيه صواريخ الاعتراض.

ينشر الاتحاد السوفييتي في ثلاثة مواقع، في آن واحد، الصاروخ الجديد العابر للقارات س س ــ ٢٥، الذي يرى فيه م. واينبرغر وزير دفاع الولايات المتحدة انتهاكاً لاتفاق سالت ٢، غير المصدق، لكنه ساري المفعول في نظره.

إن المنافسة القائمة بين استراتيجية الوسائط الهجومية والدفاعية ما فتئت تزيد المخاوف، التي تشعر بها كل من الدولتين العظميين من ضربة خاطفة أولى، إن لم تكن ضربة شبه آنية، وكذلك فعالة. وإذا كانت هذه الضربة معززة بنظام واسع مضاد للصواريخ، فهي تقلص من القيمة والقدرة

الدفاعيتين الرادعتين لردة فعل انتقامية نووية من المعتدى عليه . فاستراتيجية ردع القوي للقوي منذ ذلك الحين ، لم تعطِ الأولية للطاقة الموحدة التي ينشرها السلاح الذري ، بل للقدرة العسكرية ــ التكنولوجية ، في الإسراع بنشر أنظمة من الأسلحة سواء الهجومية منها أم الدفاعية . ومنذ ذلك الحين أصبح على كل من الدولتين العظميين المضي ، في آن واحد ، في طريق استراتيجية للردع ، واستراتيجية للوسائط العسكرية ــ العلمية واستراتيجية للدفاع المباشر ما زالت تتعثر .

ينتشر في موسكو ، كما في واشنطن ، منطق العسكرة المتكاملة ، تدفعها وتوجهها استراتيجية دفاع عامة . ومع ذلك ، ففي الاتحاد السوفييتي ، أخذ ثنائي الدفع البالستيكي والفضائي ، منذ نهاية الحرب ، مدلولاً أكبر وأهمية أعظم مما هما عليه في الولايات المتحدة ، وكثيراً ما كان الاتحاد السوفييتي يود ولا سيما إبان رئاسة بريجينيف ظهور استراتيجية دفاعية مباشرة . فقد طور برامج بحث في الأسلحة ذات الطاقة الموجهة (د . اي ـ دبليو) . وكان موقع ساريشاغان يضم ثلاث مجموعات صناعية (د . اي . دبليو) مرتبطة بالبرنامج ب م د (الأسلحة المضادة للصواريخ البالستيكية) .

قد يكون لدى الاتحاد السوفييتي ، إجمالاً ، ست مجموعات صناعية للبحث في مختلف أنواع اللازر .

أما في الولايات المتحدة، فإن طرح مبادرة الدفاع الاستراتيجي يكون رداً على القوة السوفييتية وتحدياً لها.

كان الرئيس الأمريكي والبنتاغون ينظران إلى ما حققه الجيش السوفييتي على الصعد التقنية الرفيعة، وإلى مدى التنوع في مجموعة أسلحته العسكرية، وكذلك إلى وصول المسؤولين القياديين في الصناعات الحربية إلى قيادة البلاد وإدارتها، بعد أن رسخت جذورهم في أعماق الآلة العسكرية. وهذه العسكرة المتكاملة تستند إلى إدارة تخطيطية للسبل والوسائط المتبعة والمستخدمة في الدفاع السوفييتي. أما البرمجة الطويلة الأمد، فقد استخدمت ورقة رابحة أساسية في دعم استراتيجية الوسائط السوفييتية.

منذ اتضح أن تطور المجابهة، لا يمكن السيطرة عليه، لم يبقَ أمام قادة الدولتين العظميين، إلا أن يسجلوا بطلان فاعلية اتفاقات سالت. ففي انتشار العسكرة المتكاملة، كان يجب، مع ذلك، الحفاظ على تلاحم الرأي العام الوطني ودعمه، وأن تبدي كل من الدولتين العظميين حرصها على السلام. وهكذا تبادل الزعماء الأمريكيون والسوفييت، بانتظام، الآراء في المشاريع والاقتراحات بشأن نزع السلاح الشامل. وفي الاحتكاك بين استراتيجيات القسر والإكراه، تراجع السباب والتهديد أمام التجاذب والتقارب بين الطرفين. فمن جهة، يقترح الرئيس الأمريكي إلغاء القنبلة (الذرية)، بينما يدأب الإداريون على عرض خطط كاملة لإلغاء كل أنواع أنظمة الأسلحة.

غير أن ميزان القوى لم يتوقف عن الميل لصالح الولايات المتحدة، منذ أن طرح الرئيس ريغان مبادرة الدفاع الاستراتيجي.

ضمن حدود المواجهة بين الدولتين العظميين، الماضيتين في تطبيق الاستراتيجية المتكاملة، فإن قدرة الأمة الأمريكية، حاضراً ومستقبلاً، تمنح الولايات المتحدة تفوقاً إجمالياً.

كان البنتاغون، في العام ١٩٨٥، يرى أن الولايات المتحدة تتقدم على الاتحاد السوفييتي في «خمسة عشر حقلاً من حقول التكنولوجيا». وقد لا يكون السوفييت متقدمين في أي حقل من هذه الحقول. فالاتحاد السوفييتي، لا يسعه، إلا إدانة مبادرة الدفاع الاستراتيجي وعسكرة الفضاء. فميخائيل غورباتشوف يحث ملاكاته على إحداث «ثورة في الاقتصاد» بغية تحسين التكنولوجيا. فالاتحاد السوفييتي لا يتمتع بمرونة صناعية تماثل مرونة الصناعات الأمريكية، وتكون قادرة على تحويل النجاح التكنولوجي العسكري العملاق، تحويلاً سريعاً إلى ابتكار مدني. وليتمكن الاتحاد السوفييتي من مسايرة وتيرة التقدم الأمريكية، لا يمكنه إلا أن يحول أكثر فأكثر موارد اقتصاده المدني المتخلف (بالنسبة للولايات المتحدة) لصالح المركب العسكري ــ الصناعي.

في ميزان القوى، وجدت القدرة التكنولوجية والصناعية السوفييتية نفسها متأخرة عن الجهد الأمريكي المبذول في العسكرة المتكاملة، لقدرته التكنولوجية وبرمجتها، منذ ذلك الحين، لأمد بعيد. فالطفرة الاستراتيجية

الناجمة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي، تؤدي إلى المواجهة، ضمن حدود الاستراتيجية التطورية، بين القدرات الخاصة بالعناصر الذكية التابعة للقدرات المكثفة التي تعمل على زيادة النمو التكنولوجي والصناعي ذي الصفة العسكرية. فمقابل ٩٠٠٠٠٠ عالم وتقني سوفييتي، يتوزعون على فعاليات البحث والتجديد في المجموعات الصناعية والعسكرية، هناك ٦٠٠٠٠٠ عالم وتقني أمريكي يعملون أيضاً في التحدي الذي تبديه مبادرة الدفاع الاستراتيجي.

في الانقطاع الاستراتيجي الناجم عن العسكرة المتكاملة، تتحكم القفزات التي قفزتها تكنولوجيات الالكترون ــ الانفورماتيك نحو الأمام، بقدرات الإدارة في كل تنافس. وعلى هذا الصعيد، يمثل التفوق الأمريكي، منذ العام ١٩٨٠ أمراً حاصلاً. ومبادرة الدفاع الاستراتيجي لا يمكنها إلا تعزيز هذا التفوق. هناك نحو ٤٠٪ من ميزانية مبادرة الدفاع الاستراتيجي متعلقة بالبحوث المتقدمة في مجالات الالكترون ــ الانفورماتيك، التي أصبحت مجالات حاسمة استراتيجياً. والسبق الأمريكي، المقدر له الازدياد في الأعوام المقبلة، يتفوق على العتاد السوفييتي الحربي التقليدي، الذي ينتج بكميات كبيرة.

استبدلت العلاقات التقليدية في ميزان القوى، وحلت محلها المواجهة الشاملة والكلية للقوى العظمى التي تشمل: البحث العلمي،

التكنولوجيا، القدرة على التجديد الصناعي، الاقتصاد، التمويل، الأنظمة التعليمية، التدريب الدائم.

كان على الاتحاد السوفييتي أن يتحمل صدمة مبادرة الدفاع الاستراتيجي. لذا لجأ ميخائيل غورباتشوف إلى جنيف، في تشرين الثاني ١٩٨٥، بعد أن قوَّم مدلولات هذه المبادرة ونتائجها. أما المراعاة الدبلوماسية للولايات المتحدة، فقد ازدادت توجهاً نحو حلفائها في منظمة حلف شمالي الأطلسي، أكثر من توجهها نحو موسكو، لأنها في موقف اتهام. لقد رفضت الولايات المتحدة المبادرة إلى قطيعة علنية شبيهة بما فعله السوفييت في العام ١٩٨٣ إبان أزمة الصواريخ الأوروبية. لذلك أعلنت، منذ البداية، عدم رغبتها في المفاوضة بشأن مبادرة الدفاع الاستراتيجي. ثم قدمت شكاوى على الانتهاك المتكرر لاتفاقات سالت. وكان مركز كراسنويارسك السوفييتي يمثل للولايات المتحدة، مبعث الشكوى الأساسية. فحسب معاهدة الأسلحة المضادة للصواريخ البالستيكية (آ ب م)، يحظَّر كل رادار يستخدم لإدارة المعركة لا يقع ضمن دائرة الأراضي الوطنية ويتوجه نحو الخارج. غير أن كراسنويارسك يقع داخل الأراضي السوفييتية. وفي تشرين الأول ١٩٨٥، عرضت موسكو على الولايات المتحدة، إيقاف بناء هذا الرادار، إذا ما عدل الأمريكيون، من ناحيتهم، عن تحديث رادارين من راداراتهم يستخدمان للإنذار المبكر، يقع أحدهما في افلينغدال، في بريطانيا العظمى، والآخر في توليه في غرينلاند، ورفضت الولايات المتحدة العرض.

في كانون الأول ١٩٨٥ ، توصلت الولايات المتحدة إلى إجراء تجربة نووية في باطن الأرض، في موقع الإطلاق في مخبر ليفرمور، بولاية نيفادا، وذلك بتفجير قنبلة هيدروجينية، بغية سبر إمكانات صناعة لازر ذي أشعة اكس، ضمن إطار بحوث مبادرة الدفاع الاستراتيجي، وهي التجربة النووية الأمريكية السادسة عشرة في العام ١٩٨٥ ، أما السوفييت، فلم يجروا إلا خمس تجارب في العام ذاته.

في ٢٧ أيار ١٩٨٦ ، أعلن البيت الأبيض، أن السوفييت إذا لم يقوموا «بخطوات بناءة» نحو احترام اتفاق سالت، فسترد الولايات المتحدة «رداً مناسباً» على الانتهاكات السوفييتية، وذلك بمواصلة نشر ما لديها من القاذفات ب ــ ٥٢ المسلحة بصواريخ جوالة. ومنذ كانون الثاني ١٩٨٦ ، وضعت في الخدمة ١١٠ قاذفات من هذا الطراز. ولقد باشرت واشنطن، فعلاً، بتفكيك غواصتين نوويتين لتعوض عن إدخالها غواصة جديدة، هي الغواصة نيفادا، الحاملة أربعة وعشرين صاروخاً طراز ترايدنت. غير أن وزير الدفاع الأمريكي السيد واينبرغر صرح بعد ذلك، في ٢٨ أيار، بأن الولايات المتحدة «لم تعد مرتبطة» باتفاق سالت ٢.

لم يبقَ أمام الاتحاد السوفييتي إلا أن يتخذ موقفاً معيناً حيال ذلك. ففي ٣١ أيار، ردت الحكومة السوفييتية بأنها ستتخذ «الإجراءات العملية اللازمة» لتجنب «تقويض التكافؤ العسكري ــ الاستراتيجي» مع الولايات المتحدة. وفي الوقت ذاته، عقدت في كندا جلسة لوزراء دول منظمة حلف

شمالي الأطلسي. شرح فيها جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكية، لحلفائه الأوروبيين أن اتفاق سالت ٢ أصبح «تطبيقه يزداد صعوبة .... وهو مهمل وغير موافق عليه ومنتهك» وخلص إلى القول إن الزمن تجاوزه.

كان على الأوروبيين، بعد أن وضعوا أمام الأمر الواقع، أن يتحملوا، من ناحية ثانية، حملات الضغط والإكراه، التي يشنها عليهم الاتحاد السوفييتي.

فنظراً لعجز الاتحاد السوفييتي عن التأثير في الولايات المتحدة، للمفاوضة بشأن مبادرة الدفاع الاستراتيجي والحيلولة دون ظهور نتائجها، حوَّل ضغوطه النفسية إلى الدول الأوروبية الحليفة للولايات المتحدة.

عدَّد غورباتشوف عروضه واقتراحاته لنزع السلاح من أوروبا، ففي كانون الثاني ١٩٨٦، ثم في نيسان ١٩٨٦ ألح على تخفيض الأسلحة التقليدية «من المحيط الأطلسي حتى نهر الأورال» وطالب بالقضاء على الأسلحة الكيماوية وتصفيتها. وفي ٧ تموز ١٩٨٦، أعلن غورباتشوف للرئيس الفرنسي، مستغلاً الخوف النووي الذي أثاره حادث مفاعل تشيرنوبيل، لدى الرأي العام الأوروبي، أن: «الانفراج يجب أن يكون هدف الدبلوماسية المعاصرة... وهذا منوط بزعماء أوروبا، التي لا تعرضها الحرب النووية لخطر الموت فقط. فهناك فوق الأرض الأوروبية أكثر من ١٥٠ مفاعلاً ذرياً، ومئات المصانع الكيماوية. ويكفي بضع قذائف تقليدية لإزهاق العديد من الأرواح البشرية بعد تدميرها المفاعل. والعالم كله يرى أن

الأوروبيين قد ضاقوا ذرعاً بما تعانيه أعصابهم من هذا الوضع الذي تسببه المواجهة والتوتر ... » .

لقد حصلت أمريكا ، بمبادرة الدفاع الاستراتيجي على بغيتها : موقف قوة . والولايات المتحدة تنكر على الاتحاد السوفييتي وضعه الذي يمارسه وإياها ، أي وضعه كقوة عالمية أولى ، والذي حصل عليه في العام ١٩٧٢ بالاعتراف الرسمي بالتكافؤ بينهما .

الوصاية على اليابان

عندما وضعت حرب المحيط أوزارها في ١٤ آب ١٩٤٥، كانت امبراطورية الشمس المشرقة قد انهارت.

خضعت اليابان للولايات المتحدة بموجب معاهدة الأمن، التي أصبحت في ١٩ كانون الثاني ١٩٦٠، معاهدة تعاون وأمن متبادل، وكان يسوؤها أن تكون في وضع المغلوب وتحت الوصاية الأمريكية، وأن عليها بموجب المادة ٩ من الدستور الياباني، أن تعدل عن الحرب وعن امتلاك طاقة حربية. ولما كانت مرغمة على اللجوء إلى الجهاز العسكري الأمريكي لتضمن الدفاع عنها، فقد اختارت الطريق الصناعية لاستعادة قوتها.

غير أن معاهدة التحالف التي فرضتها أمريكا، أصبحت مع الزمن سلاحاً ضد القوة المحتلة، ذلك أن اليابانيين لما استفادوا من اتفاقات التكنولوجيا في تطبيق استراتيجية نهضة صناعية وتكنولوجية، اتضح أنها تحل محل القوة العسكرية. فمن العام ١٩٤٥ وحتى عهد إدارة ريغان، وعلى

الرغم من التوترات العرضية، كانت الولايات المتحدة تشجع حليفتها وتساعدها. فقد كان يبدو للأمريكيين، أنه من الأمور الحيوية، أن تصبح اليابان —إزاء الاتحاد السوفييتي والصين— الدولة الاقتصادية الأولى في المحيط الهادي.

أما من الجهة اليابانية، فقد أدى ازدياد الغموض إلى الإضرار بالوصي الأمريكي. فالمشاريع الصناعية اليابانية، المسمى معظمها بأسماء شركات تجارية، تمتلكها أسر إقطاعية كبيرة تحفزها إرادة ثقافية تقليدية قوية في تحقيق السيادة الوطنية. ولما كانت هذه الأسر قليلة التأثر بتمييز الغرب بين القطاع العام والقطاع الخاص، فقد وضعت، بدعم من الدولة، استراتيجية للتطوير الصناعي والتكنولوجي. فأكسبت بذلك بلادها، في مدة عشرات السنين، مكانة ثاني قوة صناعية في العالم، تتفاوت وضعفها الواضح في القوة العسكرية.

لكن، بتأثير مبادرة الدفاع الاستراتيجي، تنوي الولايات المتحدة أن توجه لصالحها وثبات التقدم الخارقة التي حققتها التكنولوجيا اليابانية، أكمل تكنولوجيات العالم وأقواها في بحوث الذكاء الاصطناعي.

أما اليابان، وهي الشريك التجاري الثاني للولايات المتحدة بعد كندا، فقد استعادت وضعاً كانت تظنه مضى ولن يعود.

فخلال الأعوام الثلاثين الماضية، أفادت اليابان على نطاق واسع من التعاون العلمي والتقني الأمريكي. كما أنها عقدت مع الولايات المتحدة ثلاثة

عشر اتفاقاً، في مجالات مثل الفضاء والطاقة والانشطار الذري الخاضع للتحكم، وفيزياء الطاقات العالية. وشاركت اليابان في مشروع المحطة المدارية بعد أن وضعت تحت تصرفها تكنولوجيا منقولة من الولايات المتحدة لأجل أجهزة الإطلاق تور ــ دلتا كما بالنسبة للأقمار الصناعية المستخدمة في الاتصالات عن بعد والبث التلفزيوني المباشر. وفي ١٣ آب ١٩٨٦، أكدت اليابان قدرتها الفضائية بإنجاحها إطلاق الصاروخ هـ ١ القادر على نشر قمرين صناعيين صغيرين. وكثافة المبادلات كانت مفيدة لليابان خصوصاً قبل الإعلان عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي.

ففي العام ١٩٨٠، ارتفع عجز الولايات المتحدة التجاري، في المبادلات مع اليابان إلى ١٥ ملياراً. وفي العام ١٩٨٤ بلغ ٣٧ مليار دولار. وفي بعض القطاعات، مثل الصناعات الالكترونية ازداد العجز ثلاثة أضعاف من العام ١٩٨٠ حتى العام ١٩٨٤ منتقلاً من ٤ مليارات إلى ١٥٫٥ مليار دولار.

تخصصت الشركات اليابانية بالمنتجات ذات المستوى التكنولوجي المتقدم، بفضل جهودها المكثفة في البحث والحصول على الإجازات، ولا سيما من الولايات المتحدة. وكذلك في صناعة أشباه ــ الموصلات، استثمرت المشاريع اليابانية في العام ١٩٨٤ نحو ٥٠٪ من حجم مبيعاتها، لتحتل بهذا مكانة أساسية في قطاع العناصر ذات التكاملية الرفيعة جداً، ومنذ بداية الستينيات، تجاوزت ميزانية البحث ــ التطوير المدني مثيلتها في

الولايات المتحدة تجاوزاً كبيراً. ومن العام ١٩٦٤ حتى ١٩٧٠، ارتفعت الميزانية اليابانية إلى نسبة ١٢٩٪، ومن العام ١٩٧٠ حتى ١٩٧٩ نسبة ٨٠٪، بينما لم تتجاوز الولايات المتحدة نسبة ١٥٪، وبإدراج البحث العسكري الأمريكي تصبح الأرقام متوازنة. خطط للتطوير الصناعي لأجل طويل في ظل وزارة الصناعة اليابانية، أما في مجالات التكنولوجيا الحيوية التي تشمل البحث الأساسي، ومشروع العقل الالكتروني المتفوق، ومشروع العقل الالكتروني من الجيل الخامس، والسيراميك، والألياف البصرية، وصناعة الروبوتات، فإن الكفاءات اليابانية تساوي، على الأقل، كفاءات الولايات المتحدة.

في نيسان ١٩٨٢، كان الرئيس ريغان ينوي الحصول على أوسع انفتاح للسوق اليابانية أمام التكنولوجيا المتقدمة. وفي قطاع الاتصالات عن بعد، كان على المبادلة أن تتيح ارتفاع حجم مبيعات المشاريع الأمريكية إلى ثلاثة أضعاف. وعلى صعيد أشباه الموصلات، كان هناك منفذ أوسع قد يزيد المبيعات في السوق اليابانية، خمسة أضعاف.

رأت إدارة ريغان، أن العلاقات التجارية بين بلادها واليابان لا يمكن أن تتطور بمعزل عن العلاقات العسكرية.

وفي تشرين الثاني ١٩٨٣، أعلمت الولايات المتحدة حلفاءها أن نقل التكنولوجيا سيتم على نحو أوسع من اليابان إلى الولايات المتحدة، وذلك في إطار مساهمة يابانية ضمنية في مبادرة الدفاع الاستراتيجي. وقد حددت

هذه المساهمة بالعبارات التالية: «ستسمح حكومة اليابان، وفقاً للقوانين والأنظمة الملائمة للبلاد، بأن تنقل إلى حكومة الولايات المتحدة أو إلى الأشخاص المخولين من قبل هذه الحكومة، بعض التكنولوجيا العسكرية اللازمة لزيادة قدرة الدفاع لدى الولايات المتحدة».

وفي العام ١٩٨٤، بناء على مبادرة البنتاغون، سمح للصناعيين الأمريكيين في قطاعات التكنولوجيات الرفيعة بالاتحاد معاً لتكثيف البحث والتطوير، بغية مواجهة التحدي الياباني، بعد تعديل القانون الأمريكي المناهض للتروستات[٣]. وفي قطاع الالكترون ــ الانفورماتيك أسست هيئة سميت «ميكرو ــ الكترونيكس اند كومبيوتر تكنولوجي كوربوريشن» (م سي سي)، تضم نحو عشرين شركة أمريكية كانت متنافسة سابقاً، كما أن هناك هيئة «سيمي ــ كونديكتور رشيرش كوربوريشن» (س ر سي). التي تنظم عمل ٢٨ صناعياً في ميدان البرامج المحددة. أما وكالة مشاريع البحث المتقدم للدفاع (د آ ر ب آ) فقد كثفت البحوث في بعض القطاعات الاستراتيجية لأجل الدفاع الأمريكي مثل برنامج (ف هـ س ي سي) وبرنامج العقول الالكترونية المتقدمة.

عند إقلاع هذه المشاريع، رفضت الولايات المتحدة كل مساهمة

---

(٣) التروست: اتحاد احتكاري بين شركات عدة للحد من المنافسة.

للشركات الأجنبية، ولا سيما اليابانية، التي قد لا يمكن للرعايا الأمريكيين السيطرة على رؤوس أموالها لأنها تمثل الأكثرية والسواد الأعظم.

كان هذا الموقف الأمريكي صدمة للحكومة اليابانية. إذ كان رئيس الوزراء الياباني ناكاسوني يأمل في المساهمة الفعالة في المشروع العسكري «الدفاعي» لمبادرة الدفاع الاستراتيجي، بغية تعديل موازنة الدفاع اليابانية وزيادتها. فقد تتمكن مبادرة الدفاع الاستراتيجي من تكوين استراتيجية تثمن التكنولوجيا المتقدمة اليابانية. وقد نقل، في الواقع، أن مكاتب الدراسات المدنية للبحث والتطوير تدرس صناعة الأعتدة العسكرية. يشير جان ـــ مارك دومانج في كتابه «إعادة تسليح اليابان»[٤] إلى أن «المجموعات التجارية اليابانية الكبرى كان معظمها من أصحاب المصانع المتمرسين جداً في التسليح منذ عشرات السنين: فالسفن الحربية في الأسطول الأمريكي الامبريالي، مثلاً، التي تحدّت الأسطول الروسي في العام ١٩٠٥، كانت قد صنعتها من قبل شركات كاوازاكي وميتسوبيشي...».

كان التكتم شديداً في المشاريع اليابانية الصناعية، على عكس الجامعات التي تسهم بحصة ضئيلة في البحث.

في ٢٨ آذار ١٩٨٥، طلبت الولايات المتحدة، رسمياً، مساهمة

---

(٤) جان ـــ مارك دومانج، «إعادة تسليح اليابان» مؤسسة دراسات الدفاع الوطني الفرنسية، ١٩٨٦.

اليابان في مبادرة الدفاع الاستراتيجي. ولم يكن أمام اليابان سوى الامتثال على الرغم من قلق الصناعيين اليابانـيين، لخشيتهم أن يمنعهـم التـكتم العسكري الذي يفرضه الاتفاق من استغلال تقدمهم التكنولوجي تجارياً.

وقد جاء، في أحد مقالات مجلة الدفاع الوطني الفرنسية(٥) للسيدة هيروكو ياماني ما يلي: «بمقتضى هذه المعاهدة الثنائية، حتام تستطيع اليابان تأكيد استقلالية قرارها؟ من دون أن تثير الجدل ثانية بشأن هذه المعاهدة، إذ إن مبادرة الدفاع الاستراتيجي تطرح المسائل التي لها علاقة بالمصالح الوطنية، على نحو جديد كل الجدة».

تشير الكاتبة إلى أن اليابان تجد نفسها «معرضة خاصة» «لأطماع» حليفها الأمريكي بسبب مستواها التكنولوجي الرفيع المستوى. ومنذ أيار ١٩٨٦، وضع البنتاغون لائحة بالمشاريع اليابانية التي يتوقع أن تهم مبادرة الدفاع الاستراتيجي. وهناك أربعة أمثلة توضح، كما ترى الكاتبة، السمة الغامضة للاتفاق الموقع مع الولايات المتحدة، في تشرين الثاني ١٩٨٣ فتقول: «إنه شؤم أحياناً على المصالح اليابانية»، ثم تضيف قائلة: «كان فرع سيراميك كيوتو المستقل يقدم بعض المواد لشركة توماهاوك. وقد ابتلع المساهمون الأمريكيون هذا الفرع، أخيراً، بسبب اللوائح التي وضعتها

(٥) هيروكو ياماني، «مبادرة الدفاع الاستراتيجي قبل مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حالة اليابان» مجلة الدفاع الوطني، عدد آذار ١٩٨٦.

الولايات المتحدة، المتعلقة بالصناعات المرتبطة بالدفاع. أما شركة مغناطيس هيتاشي، فبعد أن قدمت المنتجات المغناطيسية لمعهد بحث ليفرمور وجامعة كاليفورنيا في سانتاباربارا، أعلنت أنها لم تكن تعرف أن هذه الأجهزة كانت مخصصة لبحوث مبادرة الدفاع الاستراتيجي في لوس الاموس. وشركة الزجاجيات هويا أبدت دهشتها من طريقة استخدام وسائلها في إنتاج أشعة اللازر نوفا». والمثال الأخير: أن جهازاً لشركة توشيبا، طور كتكنولوجيا مدنية، ثم اتضح أنه يمكن استخدامه كوسيلة لكشف الصواريخ أثناء طيرانها. وقد عملت حكومة الولايات المتحدة من هذه الصفقة «رائز اختبار» سياسياً يتيح لها التأكد مما إذا كانت ستثير مسألة شائكة، هي مسألة معرفة ما له علاقة «بالتكنولوجيا العسكرية».

وتضيف كاتبة المقال ما يلي: «كان الصناعيون يواجهون خطر مثل هذا الابتلاع لفروع شركاتهم المستقلة». وترى السيدة هيروكو ياماني، أن اليابان وجدت نفسها، منذ ذلك الحين، في «اندماج لا رجعة فيه في الاستراتيجية العسكرية الأمريكية، وبشكل من الأشكال، اندماج وحيد الاتجاه». وفي الأول من آب ١٩٨٦، أرغمت الولايات المتحدة اليابان على توقيع اتفاق تجاري خاص بتجارة العناصر المركبة. وقد التزمت اليابان بفتح سوقها للعناصر المركبة الأمريكية، وبأن تقدم للولايات المتحدة جميع المعطيات المتعلقة بسعر تكلفة ما تنتجه من عناصر مركبة.

بعد العام ١٩٤٥، شعرت الولايات المتحدة أن من الضروري أن

تجعل من اليابان حليفاً استراتيجياً بدلاً من الوصاية عليها. ومنذ العام ١٩٨٣، تحول التحالف الاستراتيجي الأمريكي ــ اليابـاني، تحت تأثير مبادرة الدفاع الاستراتيجي، إلى وصاية من نوع جديد، وذلك باستخدام اليابان وسيلة لإنقاذ تفوق الولايات المتحدة في التكنولوجيا العسكرية.

أوروبا في أزمة

تعاني أوروبا، منذ بداية الثمانينيات، أربع أزمات رئيسة، على الرغم من تحررها وانعتاقها.

غياب الإرادة السياسية المشتركة

وجدت أوروبا نفسها تواجه المشاريع السياسية المتباينة لدولها الكبيرة الثلاث، لافتقادها خطة سياسية ـ استراتيجية مشتركة طويلة الأمد.

فبريطانيا العظمى، في سلطة رئيسة وزرائها مارغريت تاتشر، بريطانيا الوفية لرؤية تشرشل في السياسة الخارجية، تعطي الأفضلية للعلاقات مع الولايات المتحدة. فالمبادئ التي قامت عليها المجموعة الاقتصادية الأوروبية انتابها الضعف من سلسلة الهجمات التي شنتها بريطانيا العظمى على ميزانية المجموعة الأوروبية أو على سياستها الزراعية المشتركة. فالبريطانيون، سواء أكانوا من حزب العمال أم المحافظين، يرون أن السوق الأوروبية المشتركة عليها أن تنفتح أمام السوق العالمية لتذوب فيها.

ولما كانت بريطانيا تدور في فلك الولايات المتحدة، لتتزود منها بالصواريخ البالستيكية (ترايدنت د ٥)، وبالغواصات النووية، فإنها، بذلك، تنوي التخلي عن بعض خواص القدرة العسكرية، نظراً للصعوبات الخطيرة التي تمر بها موازنتها.

فبينما كان حزب العمال، المتأثر بمشاريع نزع السلاح السوفييتية في أوروبا، يطالب بنزع السلاح الوحيد الطرف من بلاده، يميل حزب المحافظين نحو إعادة مشترياته من الصواريخ ترايدنت.

فبريطانيا العظمى تريد أن تكون قاعدة متقدمة لأمريكا في أوروبا.

أما الجمهورية الاتحادية الألمانية، التي أدخلتها الولايات المتحدة والأجداد الذين أسسوا أوروبا (م م. مونيه وشومان) في إقامة المجموعة الاقتصادية الأوروبية، فقد بدت حليفاً قوياً حتى العام ١٩٨٠. فهي، في آن واحد، طورت علاقاتها التجارية والدبلوماسية بدول الشرق، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي (أوستبوليتيك). وهذه السياسة (أوستبوليتيك) مستوحاة من الرغبة في التقريب بين شطري ألمانيا اللذين فصل بينهما مؤتمر يالطا، وهذه السياسة تستجيب للأماني العميقة في إعادة توحيد ألمانيا.

ابتداء من العام ١٩٨٠، وفي أثناء أزمة الصواريخ المنصوبة في أوروبا، استخدم الاتحاد السوفييتي السياسة التي تتبعها ألمانيا الغربية تجاه أوروبا الشرقية، ليمارس عليها سياسة الضغط، ومنذ ذلك الحين، عززت الأماني في إعادة الوحدة الوطنية الألمانية، الميول الحيادية. ولم يعد البناء الأوروبي يبدو

الهدف الذي كان مسلّماً به في العقود الأخيرة، إذ إنه قد يستمر في تقسيم ألمانيا.

كان المسيحيون ــ الديمقراطيون والاشتراكيون ــ الديمقراطيون يفضلون التحالف مع الولايات المتحدة داخل إطار حلف شمالي الأطلسي، ليكسبوا هامشاً من حرية العمل، يتيح لهم مواصلة سياسة الـ «أوستبوليتيك». بيد أن تطور العقيدة الاستراتيجية الأمريكية بالرد المتدرج في أوروبا، قد رفع درجة العتبة النووية، وأبرز ثانية وزن قوات حلف شمالي الأطلسي التقليدية، التي تؤدي فيها ألمانيا الاتحادية دوراً حاسماً.

أما فرنسا: فيرسخ فرانسوا ميتران خطة الجنرال ديغول نفسها: الاستقلال الأوروبي داخل إطار حلف شمالي الأطلسي. فاستقلال أوروبا سيعزز التلاحم بين الدول الأعضاء في المجموعة الأوروبية، وسيعطي أوروبا قدرة على التوسط في الحوار بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، بالنظر إلى موقعها الجغرافي المتميز وتاريخها، ويوطد صلة الولايات المتحدة بحلفائها الأوروبيين.

إن قوة فرنسا النووية، تزودها بقدرة ردع واسع في أوروبا. وهذه القدرة لم تكن موجودة في رئاسة الجنرال دوغول. وهذا الردع الواسع يعزز الردع الأمريكي ويكوّن دعامة هي أقوى دعائم حلف الأطلسي صلابة. وإن فرنسا تهدف إلى التغلب على الأزمات التي قد تظهر في وسط أوروبا أو جنوبها على المدى القريب أو المتوسط. أما على المدى البعيد، فإنها توجد الظروف

للدفاع عن أوروبا في عصر الفضاء. ومشروع الاستقلال الأوروبي يتطلب تعاون الدول الأوروبية، ابتداء من الثمانينيات، في بناء دفاع مشترك مضاد للصواريخ، وفي بناء وسائط للوجود السلمي في الفضاء الخارجي (الأقمار الصناعية، أجهزة الإطلاق، المكوك الفضائي، المحطات الفضائية).

ضعف وسائط العمل

إن أوروبا الممزقة بين مشاريع متباينة والقوية بعدد سكانها البالغ ٣٢٠ مليون نسمة، وبحضارتها الساطعة وموقعها كأول قوة تجارية في العالم، أوروبا هذه بدأت شمسها بالأفول منذ عقد من الزمن.

فالطرق التي تؤدي إلى استقلالها السياسي ـــ العسكري وحيويتها الصناعية، لم تعد مزودة بوسائط العمل الكافية ولا بالمدد الزمنية اللازمة لتحقيقها.

وثمة سبل حاسمة ثلاث:

١ ـــ في المقام الأول: التعاون بين الصناعات الالكترونية والانفورماتيك: على هذا الصعيد الأساسي، تتطلب التكنولوجيات المتقدمة المرتبطة بالالكترون ـــ الانفورماتيك، تمويلات كبيرة، تسخرها لها صناعات الدفاع، الجوية منها والفضائية. وهذه التكنولوجيات المتقدمة تستخدم، من خلال إسقاطاتها، مجموع الصناعات التي تحقق تجديدات لها وزنها. وتتطلب مهلة زمنية طويلة لضبطها. ففي هذه القطاعات الاستراتيجية

الرفيعة، يجب اكتساب المهارة على مدى عشرات السنين. ويستبعد أن يتمكن بلد مصنَّع حديثاً أو لديه مشروع وليد، من أن يصبح بلداً تقنياً وتجارياً، كما كان يحدث في الماضي. إن سوق الالكترون ــ الانفورماتيك، بدخولها في منافسات دول العالم كافة، تلاقي زيادة سنوية يبلغ معدلها نحو ١٥٪. ففي العام ١٩٨٥، كان سوق الانفورماتيك لوحده يمثل ثالث سوق دولي، بعد النفط والسيارات. ومعدل نموه أسرع بثلاث مرات من معدل الاقتصاد العالمي بمجمله.

على الصعيد العالمي، كانت الولايات المتحدة، في العام ١٩٨٥، تسيطر على ٤٧٪ من إنتاج الانفورماتيك، واليابان ٢١٪، وأوروبا ٢١٪، في حين كانت حصتها في العام ١٩٨٠ تبلغ ٢٦٪.

تتَراجع أوروبا على صعيد الالكترون ــ الانفورماتيك. وفي مجال أشباه ــ الموصلات، تراجع الأوروبيون ولم يعد إنتاجهم يبلغ أكثر من ٥ر٨٪ من السوق العالمية. وبخصوص الآلات الحاسبة الضخمة، ازداد العجز التجاري الأوروبي وتجاوز ١٠ مليارات دولار في العام ١٩٨٥. أما العقول الالكترونية المهنية، فقد احتلت أوروبا أقل من ١٠٪ في السوق العالمية. فالسوق الأوروبية مقسمة في أعماقها إلى أسواق قومية، وهي بمعاييرها وممارساتها التي تحميها، تجعل دخول الصناعيين الأوروبيين إليها أصعب من دخول الصناعيين الأمريكيين واليابانيين.

٢ ــ تعاون التسليح الأوروبي يمثل الطريق الثانية: ازداد اختلال

التوازن القائم بين أوروبا والولايات المتحدة على صعيد ميزان التكنولوجيات العسكرية. وكانت نسبة الخلل ١ إلى ١٠ في غير صالح الأوروبيين.

فقد شنت الولايات المتحدة حملة مالية وتكنولوجية على أوروبا، لتشجيع مبيعاتها من الأعتدة العسكرية، والأسلحة الأمريكية الملقبة «بالذكية» المتحدرة من إسقاطات البرامج الفضائية الأمريكية الكبرى، توشك أن تتفوق على معظم الأعتدة الأوروبية وتبطلها. وهذه الأسلحة التي تدعم عقيدة روجرز «المعركة الجوية ــ البرية ٢٠٠٠» عليها أن توجه الاندماج، في الزمان والمكان، للمعلومات، والقرارات، والقوات المسلحة في حلف شمالي الأطلسي.

إزاء تلاحم الاستراتيجية الأمريكية، بدأ صانعو الأسلحة الأوروبيون الشديدو الانقسام، يتخوفون من المنافسة الأمريكية.

والمشاريع النادرة الكبرى في أوروبا، مثل طائرة القتال الأوروبية، أو إنشاء مجموعة أوروبية لصناعة الحوامات، أخفقت جميعها (فقد بيعت ويستلاند إلى سيكورسكي).

٣ ــ أخيراً، الطريق الأخيرة، وهي التعاون العسكري الفرنسي ــ الألماني: صمم هذا التعاون ليكون العنصر ــ المحرك في الصناعة الأوروبية، غير أنه حصد الخيبة والمرارة الأليمة. وكان هذا واضحاً منذ التوقيع على معاهدة الاليزيه المتعلقة بالتفاهم الفرنسي ــ الألماني، في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٣.

بعـد التصديـق على هذه المعاهـدة قلص البوندستـاغ (المجلس التشريعي)، بناء على قرار من ويلي براندت، مجال التعاون الفرنسي ــ الألماني، مصراً على ضرورة الاندماج العسكري في حلف الأطلسي، والتعاون مع الولايات المتحدة.

بدءاً من ١٩٧٩ ــ ١٩٨٠، انعكست أزمة الصواريخ الأوروبية، التي هزت ألمانيا الاتحادية، على التعاون الفرنسي ــ الألماني.

وفي ٢٨ تشرين الأول ١٩٧٧، أعرب المستشار شميث في خطاب ألقاه في معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن، أعرب عن قلقه كأوروبي، لنصب الصواريخ س س ــ ٢٠ السوفييتية في أوروبا، وكان يرى أن على الغرب، بذل جهوده، بلا تأخير، للحاق بركب الصواريخ النووية.

بعد ذلك بثلاث سنوات، كان الرأي العام الألماني متحيراً يتأرجح على نحو واسع، إذ لما تعرض لتهديد موسكو بخطر تدمير أوروبا، من جراء نشر الصواريخ س س ــ ٢٠، التزم موقف الحيادية، وأعلن عداءه لنصب الصواريخ النووية الأمريكية كروز وبيرشينغ ٢ فوق أراضيه. وأمـام هذا الوضع، أرادت فرنسا القيام برد فعل. وأتى خطاب فرانسوا ميتران أمام البوندستاغ (المجلس التشريعي الألماني)، في ٢٠ كانون الثاني ١٩٨٢، ليحدد بداية مشروع يجب إنجازه في وقت قصير جداً، للحفاظ على أوروبا، من خلال استقرار جمهورية ألمانيا الاتحادية.

ولتحقيق هذا الهدف، نظم الرئيس الفرنسي قوة العمل السريع وحدد، لأول مرة، مع بون، في تموز ١٩٨٥، مجال «مصالح الأمن، التي هي مصالح مشتركة» بين دولتين متضامنتين.

ضغط الرئيس ميتران على المستشار كول خاصة، وعلى الزعماء الألمان عامة، للشروع في تنسيق مصالح الأمن المشتركة. وبهذا الصدد، تبين أن التعاون الصناعي العسكري أساسي وحاسم.

على الصعيد التقليدي، أبدت جمهورية ألمانيا الاتحادية تحفظها. وذلك أن معظم المشاريع الجديدة، قد أخفقت بعد مماطلات طويلة. فالقادة الألمان يؤثرون استيراد أكبر قدر ممكن من التكنولوجيا العسكرية الأمريكية. فالدبابة الفرنسية ــ الألمانية تبدو مهملة. والحوامة الهجومية الفرنسية ــ الألمانية تصطدم بخلافات دائمة على التصميم. وبخصوص صناعة طائرة القتال الأوروبية، يدعم الألمان بريطانيا العظمى ويعزلون فرنسا.

على الصعيد الفضائي، إن التحفظات الألمانية، بشأن تحديد استراتيجية الوسائط المشتركة، للإعداد لعصر الفضاء الأوروبي، بدت تحفظات أكثر حدة أيضاً.

وفي العام ١٩٨٤، «أجَّلَت» بون قرارها بشأن الاشتراك بصناعة قمر صناعي عسكري مع فرنسا مخصص للمراقبة والرصد. وفي العام ١٩٨٥، ثم في العام ١٩٨٦، «أرجأت» جمهورية ألمانيا الاتحادية قرارها في المشاركة مع فرنسا في المكوك الفضائي هرمس وفي المحطة الفضائية المدارية

الأوروبية. ولقد أبدت وكالة الفضاء الأوروبية رأيها طبعاً، في حزيران ١٩٨٦، وكان لصالح صناعة الطائرة الفضائية هرمس. غير أن وزير المالية في جمهورية ألمانيا الاتحادية، جيرهارد ستولتنبرغ، أعلن أن بلاده لا تتوقع من الميزانية أي تمويل لصالح هرمس.

ضغطت حكومة بون على الولايات المتحدة، لتحصل منها على حق الانفراد، على صعيد الطيران المأهول، داخل إطار التعاون مع وكالة ناسا.

بعد بريطانيا العظمى، التي قدمت مشروع الطائرة هوتول العابرة للجو، عرضت جمهورية ألمانيا الاتحادية بدورها، طرازاً لمكوك فضائي ألماني بكامله، يدعى أوجين سينجر.

بعد العصر الذهبي للتعاون العسكري الفرنسي ـ الألماني، في الستينيات والسبعينيات، الذي تجسد بالطائرات الفا ـ جت وترانسال، والصواريخ المضادة للدبابات طراز ميلان، والصواريخ م/ط طراز رولان، تلا ذلك تراجع بون وتفضيلها التعاون مع أمريكا، في لحظة حاسمة من مستقبل أوروبا.

آثار استراتيجية الضغط السوفييتية

في الساحة الأوروبية التي تقطعها حواجز المسافات الوطنية والمشاريع السياسية المتعارضة، تنتشر استراتيجية إقليمية سوفييتية كبرى. وكانت موسكو بالتهديد العسكري حيناً وبالحوار حيناً آخر، تبسط على أوروبا ضغطها السياسي الرامي إلى إضعاف الولايات المتحدة وإلى فصلها عن حلفائها الأوروبيين.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، لم يخف الزعماء السوفييت حرصهم على إبقاء ألمانيا «رهينة» مقسمة، حسب الصورة التي رسمها نيكيتاخروتشوف. فتكديس الصواريخ س س ـ ٢٠ السوفييتية المسددة إلى أوروبا، يأتي دعماً لقدرتهم على السماح بإقامة العلاقات بين الألمان الشرقيين والغربيين، أو تجميد هذه العلاقات. وإن أزمة الصواريخ الأوروبية، التي تخطاها صنيع فرانسوا ميتران على نطاق واسع، قد أظهرت غموض سياسة الاوستبوليتيك في صميم الصف السياسي الألماني.

لهذا وجدت موسكو نفسها قادرة على ممارسة نفوذ سياسي على الرأي العام.

فتجاه حزب الخضر والحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي، يتصرف الاتحاد السوفييتي لصالح نزع السلاح، الذي سيمهد «للانفراج» ولتسريع العلاقات بين الدولتين الألمانيتين.

أما تجاه الرأي العام، عموماً، فهو يضرب، في آن واحد، على وتر المشاعر الوطنية، والتطلعات الإنسانية في التقارب بين الأسر.

فالجمهورية الاتحادية تمثل هدفاً متميزاً للاتحاد السوفييتي، إذ يمكنه بوساطتها الإفادة من مساعدات التكنولوجيا الغربية. ذلك أن لجمهورية ألمانيا الديمقراطية علاقات تجارية بجمهورية ألمانيا الاتحادية، تتعلق بالاتفاقات بين الألمان (الشرقيين والغربيين) وجمهورية ألمانيا الاتحادية تمثل، في الواقع «الدولة العضو رقم ١٣ في السوق المشتركة».

بعيد توقيع المعاهدة الألمانية ــ الأمريكية بشأن مبادرة الدفاع الاستراتيجي، اعترف الاتحاد السوفييتي، للمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً، بالمجموعة الاقتصادية الأوروبية في أيار ١٩٨٦.

أثار الاتحاد السوفييتي، بوساطة جمهورية ألمانيا الاتحادية، ردود فعل مناسبة لتجميد القوة النووية الاستراتيجية الفرنسية، وهذا ما يطالب به منذ العام ١٩٨١، ومشاريع نزع الأسلحة في أوروبا، التقليدية، والكيماوية، والنووية، التي يقترحها على الولايات المتحدة ويبثها في أوروبا، ترمي إلى إظهار القوة النووية الفرنسية بمظهر العقبة الكأداء القائمة دون الاتفاقات الممكنة.

هكذا فصمت موسكو عرى التحالف الفرنسي ــ الألماني وكبحت، من خلال ذلك، الحيوية الأوروبية. وإلى جانب ذلك، كانت اقتراحاتها بشأن نزع الأسلحة في أوروبا تستخدم أساليب الضغط على

الولايات المتحدة متوخية عدولها عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي بعد توسط الدول الأوروبية وتدخلها.

فبينما كان الاتحاد السوفييتي يمارس في أوروبا سياسة الضغط، كانت الولايات المتحدة تنوي أن تجعل من أوروبا مجالها المفضل «كمقاول من الباطن»[٦].

كانت أوروبا تمثل للولايات المتحدة السوق المفضلة لصادراتها من التكنولوجيا الرفيعة. إذ للسوق الأوروبية فائدة مزدوجة للولايات المتحدة. فهي سوق رائجة لتصريف المنتجات الأمريكية من جهة، وعروضها الصناعية تميل إلى الزوال من جهة ثانية.

---

(٦) مقاول ثانوي يتعاقد مع المقاول الأساسي ليحل محله في تنفيذ العمل أو جزء منه.

مبادرة الدفاع الاستراتيجي

مر الرئيس الأمريكي ريغان على ذكر أوروبا مرور الكرام، في خطابه بتاريخ ٢٣ آذار ١٩٨٣، فقد طرح مبادرة الدفاع الاستراتيجي حتى من دون استشارة حلفائه في حلف شمالي الأطلسي.

وفي العام ١٩٨٥ عرض وزير الدفاع الأمريكي كاسبار واينبرغر خططاً مجردة من اللبس والغموض. فهو يرى أن أوروبا لا يمكن أن تكون سوى منطقة للمقاولة من الباطن. والتعاون مع الصناعات الأوروبية، على صعيد مبادرة الدفاع الاستراتيجي، يجب أن يأخذ كذلك سمة المقاولة من الباطن.

تستخدم اتفاقات سالت حسب الظروف، كحجج دامغة تجاه الدول الأوروبية المرتبطة بالرقابة على الأسلحة الأمريكية ـــ السوفييتية وبالانفراج. وكل مشاركة في مجموع المعارف مع دولة حليفة، في بحوث مبادرة الدفاع الاستراتيجي، قد تمثل انتهاكاً لمعاهدة ١٩٧٢، للحد من

الأسلحة المضادة للصواريخ البالستيكية، التي تحظر نقل التكنولوجيا على هذا الصعيد.

شددت الولايات المتحدة ضغوطها العسكرية بتوجيهها، من خلال رسالة نشرت في ٢٦ آذار ١٩٨٥، إنذاراً نهائياً إلى سبع عشرة دولة، منها الدول الأعضاء في التنظيم العسكري لحلف شمالي الأطلسي، وكذلك وجهت هذه الرسالة أيضاً إلى اليابان وإسرائيل وأستراليا، وفرنسا أخيراً.

فقد كتب كاسبار واينبرغر في هذا الإنذار ما يلي: «الولايات المتحدة مخوَّلة ومستعدة لمباشرة بعض برامج التعاون، بشأن معطيات تكنولوجيا الصواريخ المضادة للصواريخ البالستيكية، بعد الاتفاق المتبادل مع البلدان الحليفة.

«فإذا كانت بلادكم مهتمة بالسعي لعقد اتفاقات متوقعة للتعاون أو المساهمة، فأنا أرجوكم، أنْ تتفضلوا، في أول فرصة، بإعلامي خلال الستة عشر يوماً عما يمكنكم تقديمه من فائدة عبر مساهمتكم في برنامج بحوث مبادرة الدفاع الاستراتيجي، والقطاعات التي تبدو لكم نوعية البحث فيها، قطاعات واعدة لهذا البرنامج، أكثر من القطاعات الأخرى في هذا البلد.

«نحن نود أن يلقى ردكم اهتمامنا السريع، لهدف الشروع في المباحثات الثنائية الخاصة بمواضيع نوعية وباتفاقات التعاون».

وهكذا، لم تجد الأمم الأوروبية أمامها إلا مهلة ستة عشر يوماً، للانضمام إلى مبادرة الدفاع الاستراتيجي بموجب اتفاقات ثنائية منفردة.

عندما حضر كاسبار واينبرغر في ٢٧ آذار ١٩٨٥، إلى قصر الاليزيه، أعلن في مقابلة أجريت معه[٧] : «تمثل مبادرة الدفاع الاستراتيجي تغيراً هاماً في الفكر الاستراتيجي».

إن إدانة الردع النووي المستمرة في خطب الرئيس ريغان، أتاحت للولايات المتحدة بلوغ هدفين رئيسين في أوروبا: اشتراك الحلفاء ذوي القدرة التكنولوجية العالية في مشروع عسكري أمريكي، والهدف الثاني الحط من قيمة تصاعد قدرة فرنسا النووية، ورغبتها في الاستقلال الأوروبي. وعندها يوشك أن يتوطد معسكران على حساب القضية الأوروبية وفي غير صالحها وهما: معسكر الأطلسيين دون قيد أو شرط، ومعسكر الحياديين.

في جمهورية ألمانيا الاتحادية، استند المستشار كول إلى الإدانة الريغانية للسلاح النووي، على غرار اليابان، لدعم مبادرة الدفاع الاستراتيجي. وقد أشاد المستشار الألماني في العديد من خطبه «بالرؤية المستقبلية» للرئيس ريغان. وفي بريطانيا العظمى أعلنت رئيسة الوزراء عن رغبتها في المشاركة بمبادرة الدفاع الاستراتيجي، وهذا ما فعلته أيضاً إيطاليا.

---

(٧) صحيفة «لوموند» ٢٩ آذار ١٩٨٥.

عند افتتاح القمة الحادية عشرة للـدول الصناعيـة السبـع، غير الشيوعية في العالم، في ٢ أيار ١٩٨٥ في مدينة بون، وجدت فرنسا نفسها وحيدة في رفض مبادرة الدفاع الاستراتيجي. وفي ١٢ حزيران ١٩٨٤، في مؤتمر نزع السلاح، في جنيف، صرح ممثل فرنسا بما يلي: «الرأي العام الدولي قلق قلقاً مشروعاً تجاه مثل هذه الآفاق، التي يبدو أنها أدخلت بعداً جديداً. وخطراً إلى سباق التسلح». ونجم موقفهـا كذلك عن الاهتمام بالمحافظة على اتفاقات سالت، الذي عبرت عنه الدول العشر الأعضاء المجتمعة داخل إطار التعاون السياسي الأوروبي.

لاحظ فرانسوا ميتران في كتاباته «أفكار في السياسة الخارجيـة لفرنسا» أن رونالد ريغـان، عندمـا كان في بون «أشار إلى أن فرنسا وصناعاتها ستفيد من عطاءات المقاولة من الباطن، التي قد لا يفوت الولايات المتحدة أن تضعها في متناول أيديهم... إن هذا الحديث يقنع، بلا شك، أصدقاءنا الأمريكيين بعزم فرنسا على عدم الانضمام إلى مبادرة الدفاع الاستراتيجي».

على النقيض من بلاغات مؤتمرات القمة الأوروبية الكبرى التي تدين سباق التسلح، فإن الدول الأعضاء في المجموعة الاقتصادية الأوروبية، ماعدا فرنسا، انضمت إلى مبادرة الدفاع الاستراتيجي.

في تشرين الثاني ١٩٨٥، وقّعت بريطانيا العظمى في لندن «مذكرة

اتفاق» مع كاسبار واينبرغر. وفي ١٧ آذار ١٩٨٦، عقدت بون، بدورها، اتفاقاً مع واشنطن.

بموجب هذا الاتفاق، تحتفظ الولايات المتحدة بكل حق في حرية التصرف لوضع قواعد لسير العمل، واستغلال نتائج البحوث التي تنجزها المشاريع الألمانية الغربية بموجب عقد. إن جمهورية ألمانيا الاتحادية، التي تعدها واشنطن مثل «المصفاة»، يمكنها التصرف مستقبلاً بما ستجنيه من نتائج «إلا إذا قررت حكومة الولايات المتحدة غير ذلك بما يخص العقود التي تمولها حصراً، مطبقة في ذلك قوانينها الوطنية ومعاييرها بخصوص الحق في الملكية».

تحاول بون، بعد انضمامها إلى مبادرة الدفاع الاستراتيجي، أن تقلل من أهمية هذا الانضمام تجاه شريكها الفرنسي وجارها السوفييتي. ففي أثناء التوقيع، أصرت على الطبيعة التكنولوجية لمبادرة الدفاع الاستراتيجي. أما الولايات المتحدة الواضحة، فقد أشارت إلى حقيقتها العسكرية.

ولسوء حظ فرنسا، وأوروبا، وطوال السنوات ١٩٨٣ ــ ١٩٨٦، وهي فترة قصيرة لكنها حاسمة، لم يكف زعماء الحزب المسيحي ــ الديمقراطي في ألمانيا الاتحادية عن التردد والمراوغة. لقد شلت صراعات المصلحة الأحزاب السياسية الألمانية، لأنها كانت عرضة لضغوط متعارضة من الدولتين العظميين، لكنها متقاربة في تأثيراتها السياسية ــ النفسية. وكان المستشار كول، المتردد دائماً، قد جعل شريكه

الفرنسي ينتظر طويلاً، وفضل بعد ذلك الولايات المتحدة بعد مماطلات طويلة.

كانت مبادرة الدفاع الاستراتيجي تمثل بالنسبة للولايات المتحدة وسيلة للتحكم بالوقت لإيقاف تقدم بناء أوروبا أكثر استقلالية، ورسالة وزير دفاع الولايات المتحدة، بتاريخ ٢٦ آذار ١٩٨٥، تظهر أن وهم علاقات السيادة بين الدول قد زال. والمشاريع الصناعية والأجواء الوطنية السامية لم يعد بالإمكان تمييزها.

لم تفلت فرنسا من هذا العطاء الجديد للدبلوماسية الأمريكية، على الرغم من قوتها النووية الاستراتيجية التي تزداد قوة.

تبين أن إسقاطات مبادرة الدفاع الاستراتيجي كانت مخيبة للآمال في أوروبا. فالعقود المبرمة مع البنتاغون لم تتجاوز نسبة ٣٪ من الموازنة الكلية لمبادرة الدفاع الاستراتيجي. وفي أيار ١٩٨٥، كان الجنرال ابراهامسون قد أعلن أن الحلفاء يمكنهم المشاركة في البحث في مجالات غير سرية.

للحفاظ على فرص الانطلاق لبناء أوروبا، طرحت فرنسا، في ١٨ نيسان ١٩٨٥، مشروع أوريكا الذي يرمي إلى «إقامة أوروبا التكنولوجية بلا تأخير»(٨). وأوريكا لا يتعارض مع مبادرة الدفاع

---

(٨) رسالة وزير العلاقات الخارجية، رولان دوما، الموجهة إلى نظرائه في البلدان الأعضاء في المجموعة الاقتصادية الأوروبية، وكذلك إلى وزراء خارجية كل من اسبانيا والبرتغال.

الاستراتيجي. إذ إن المبادرة الفرنسية تتضمن إتاحة النهضة التكنولوجية لأوروبا من خلال بعض البرامج المدنية.

إن برنامج أوريكا، الذي اعتمد في ١٧ تموز ١٩٨٥، يشجع النهضة التكنولوجية في أوروبا. وبعد سنة من طرحه الذي أثار شكوك بريطانيا العظمى وجمهورية ألمانيا الاتحادية، لاقى هذا البرنامج نجاحاً قوياً. وانطلق التعاون الصناعي والتكنولوجي. وإزاء المنافسة الأمريكية واليابانية، مثَّل برنامج أوريكا إطاراً واعداً، ففي العام ١٩٨٦، جمع نحو ٦٢ مشروعاً للتعاون الصناعي. وأكثر هذه المشاريع مختص بتكنولوجيات الإعلام، والإنتاجية، والروبوتات (الإنسان الآلي)، بل كذلك المواد الجديدة، والتكنولوجيا الحيوية. والمبالغ التي كلفتها هذه المشاريع، وهي ١٥ مليار فرنك فرنسي، تمولها الدول، ولا سيما الصناعية نفسها، ويضم مشروع أوريكا، علاوة على المجموعة الاقتصادية الأوروبية، ثماني عشرة دولة، أي يصبح المجموع بكامله تسعة عشر عضواً، وزود أوريكا بأمانة سر (سكرتاريا) بسيطة جداً، تنحصر مهامها في الإعلام وفي الاتصال بين الصناعيين. اشتركت فرنسا في أربعين مشروعاً، وبريطانيا العظمى في عشرين، وجمهورية ألمانيا الاتحادية في خمسة عشر مشروعاً.

إن الموارد التمويلية لمشروع أوريكا ما زالت تبدو مشكوكاً فيها، إذا ما قورنت بميزانية مبادرة الدفاع الاستراتيجي. ففرنسا، التي كانت تتوقع أن ترصد، للعام ١٩٨٦، نحو مليار فرنك فرنسي لميزانية أوريكا، لم تخصص

سوى ٤٠٠ مليون فرنك بعد تغير الحكومة، أي بعد تاريخ ١٦ آذار ١٩٨٦.

وجمهورية ألمانيا الاتحادية التي وافقت على ٦٢٥ مليون مارك على مدى عشر سنوات، وبريطانيا العظمى التي وافقت على ١٠ ملايين جنيه سنوياً، لم تكونا ترغبان في زيادة تمويلهما لصالح أوريكا.

هذان البلدان، إلى جانب دعمهما لأوريكا، طورا برامج وطنية حكومية في الانفورماتيك، فمن أجل الميكرو ـ انفورماتيك والحواسب الالكترونية، خصصت لندن ٢٠٠ مليون جنيه في العام ١٩٨٥، أما بون فقد خصصت ٣ مليارات مارك ألماني مساعدة حكومية، للعام ذاته ١٩٨٥، من أجل الأبحاث في الاتصالات، والميكرو ـ انفورماتيك والميكرو ـ الكترونيك.

أضيف برنامج أوريكا إلى العديد من البرامج الأخرى للبحث التكنولوجي الأوروبي ومنها:

ـ اسبريت (البحث والتطوير في تكنولوجيات الإعلام)، وميزانيته ارتفعت إلى نحو ١٠ مليارات فرنك للأعوام ١٩٨٤ ـ ١٩٨٨.
ـ بريت (البحث في مضمار التكنولوجيا الأساسية: اللازرات، الكيمياء الالكترونية).
ـ راس (البحث بغية إنشاء شبكة واسعة من الاتصالات عن بعد ذات رقعة ذبذبات واسعة).

ـــ جت (جت ايروبيان تورس: ويتعلق هذا البحث بالانصهار النووي ــ الحراري).
ـــ أخيراً، هناك برنامجان للتكنولوجيا الحيوية، إنما، بسبب غياب وحدة التصميم والدافع، ومصادر التمويل الكافية، وتثبيت مواعيد التنفيذ، فإن هذه البرامج على اختلافها، لا تضع، نظراً لما سبق، أسس استراتيجية تطوير تكنولوجي لأوروبا.

بيد أن نشاط فرنسا لا يقف عند حدود دعم مشروع أوريكا. فهي تنشط التعاون الفرنسي ــ الألماني وتدفعه نحو الأمام، دون كلل أو ملل.

اقترحت فرنسا دفاعاً جوياً مضاداً للصواريخ، للدفاع عن أوروبا في المستقبل. وبالأخذ بالحسبان أهمية الرهان، فإن فرنسا مستعدة لقبول توحيد القيادة في أوروبا، في اللحظة التي قد تعبر فيها هذه القيادة عن موقف أوروبي.

إن موقف فرنسا الحالي مستوحى من نجاح أوروبا في الفضاء في السبعينيات، فقد انقسمت الدول الأوروبية في بداية السبعينيات، بشأن اختيار صاروخ الإطلاق، فالفرنسيون، الذين كانوا قد اكتسبوا مهارة في مجال الدفع البالستيكي بوساطة بناء قوتهم النووية الاستراتيجية، أنشؤوا واقترحوا، في العام ١٩٧٣ صاروخ الإطلاق اريان، في إطار الوكالة الفضائية الأوروبية.

الوكالة الفضائية الأوروبية فرنسية في معظمها، غير أنها كانت تضم

آنذاك عشر دول، أصبحت بعد ذلك ثلاث عشرة، عند تطوير الصاروخ اريان، ويرجع النجاح الذي أحرزته الوكالة الفضائية الأوروبية إلى وحدانية الإدارة، فهذه الإدارة توجه المركز الوطني للدراسات الفضائية، الذي يضمن الإشراف على العمل، كما توجه الشركة الوطنية للصناعات الجوية الفضائية التي تمثل الصانع، وهو فرنسي أيضاً.

إن الدفاع الجوي المضاد للصواريخ قد يعكس ثلاثة أهداف:

١ ــ قد يمثل هذا الدفاع رد أوروبا على التحديات الجديدة للدفاع السوفييتي المضاد للصواريخ. وبخصوص فرنسا، فقد تعزز التأثير الرادع لقوتها النووية الاستراتيجية.

٢ ــ قد يدفع هذا الدفاع التعاون العسكري الفرنسي ــ الألماني بل والأوروبي أيضاً نحو الأمام.

بين يدي المجموعة الاقتصادية الأوروبية العديد من الأوراق الرابحة. وصاروخ الإطلاق اريان ٥ سيفيد من التقدم الذي أحرزه اريان ٤. ويمكن لكل من بريطانيا العظمى وجمهورية ألمانيا الاتحادية مع فرنسا، المشاركة في صناعة أقمار صناعية للاتصالات عن بعد، وتقوم هذه الصناعات على قاعدة القدرات الحالية لهذه الدول. وبوجود قمر الرصد المدني سبوت وقمر الرصد العسكري للمستقبل هليوس، المتوقع إنتاجه في العام ١٩٩٢، تبدو فرنسا قادرة، مع شركائها الأوروبيين، على إكمال الجهاز بصناعة قمر صناعي للإنذار المبكر.

٣ ـ قد يعد هذا الدفاع أوروبا الفضائية لدخول الألف الثالث بعد الميلاد. وقد يتطلب هذا استراتيجية مشتركة للتطور التكنولوجي الأوروبي الشديد الاتساع، وهكذا يصبح بالإمكان تصور دفاع مشترك عن أوروبا قد يعزز مسيرها نحو الاستقلال والتوحد.

أما في السنين العشر القادمة، فيجب إنجاز مسعيين إضافيين:

فأولاً، مساهمة وكالة الفضاء الأوروبية في أعمال وكالة ناسا، وفي هذا الإطار من التعاون التكنولوجي، يحصل الأوروبيون على استقلالهم عبر أربعة مشاريع: مختبر قياسي، منصة آلية، منصة مختبر، ومنصة علمية.

قد تعمل هذه العناصر مستقلة عن المحطة الفضائية ذاتها، ويجب أن تطلق بوساطة الصاروخ اريان ٥.

سيحتاج الأوروبيون لاحقاً، للطائرة الفضائية هرمس، التي تعدها شركتا ايروسباسيال وداسو، والتي تنقل إلى الفضاء بوساطة طائرة ايرباص. وتقوم هرمس بدور المكوك بين سباسلاب ومحطة فضائية أوروبية، كما تتمنى فرنسا منذ العام ١٩٨٤.

على أوروبا، إلى جانب ذلك، أن تقيم دفاعاً مضاداً للصواريخ لحماية أوروبا، والولايات المتحدة تقترح برنامجها ت آ ب م (الصاروخ التكتيكي المضاد للصواريخ البالستيكية) وهو صواريخ مضادة للطائرات ومضادة للصواريخ، وهذا البرنامج مشتق من الصاروخ أرض ـ جو

باتريوت. وتتمنى الولايات المتحدة أن تصنع، في إطار حلف شمالي الأطلسي، أنظمة للدفاع الإقليمي (أي عن المناطق). ومبادرة الدفاع الاستراتيجي، تصميم استراتيجي لدرع أمريكي يصنع في المستقبل، وله عواقب جديدة سياسية ــ عسكرية. إن القوات البرية في الولايات المتحدة، تنوي إعداد خطة لنشر الأسلحة المضادة للصواريخ في أوروبا، وذلك بتفويض من «هيئة مبادرة الدفاع الاستراتيجي». ولهذا الغرض تدرس «هندسة» هذا النظام الذي يجب أن يتمكن من اعتراض الصواريخ السوفييتية س س ــ ٢١، س س ــ ٢٢، س س ــ ٢٣، بوساطة الصواريخ الجوالة، كما يجب أن تتمكن غارات الطائرات القاذفة على ارتفاعات منخفضة من مواجهة قوات حلف وارسو. يبدو من المهم أن مشاريع التسليح الأوروبية، المتنافسة على دراسة الرسم «الهندسي» لبرنامج الصاروخ التكتيكي المضاد للصواريخ البالستيكية في أوروبا، تتحالف مع شركات أمريكية لتنفيذ هذا المشروع تحت زعامتها. لم تتوصل المشاريع الأوروبية إلى إعداد دراسة مشتركة لأوروبا. فالتكنولوجيا الأمريكية المضادة للصواريخ تبقى بالنسبة للولايات المتحدة طريقة جديدة تمكنها من دمج سياسة الدول الأوروبية وتوحيدها تحت قيادتها. فمجال «المقاولة من الباطن» الأوروبي سيكون، عسكرياً، خاضعاً للولايات المتحدة. غير أن نصب أسلحة مبادرة الدفاع الاستراتيجي وما يتبعه من صواريخ تكتيكية مضادة للصواريخ البالستيكية يوشك أن يضخم إرادة الاتحاد السوفييتي في الثأر من أوروبا. وإن الدرع الأمريكي لن يكون لهذا «مقترناً» بدرع

أوروبي .

قدمت فرنسا، من ناحيتها، برنامجاً مشابهاً، لكن الدول الأوروبية هي التي أوجدته وصممته. فهو يفترض إنشاء مركز أوروبي للرصد بالأقمار الصناعية، وصناعة أنظمة للكشف، وإدارة أنظمة الصواريخ المضادة للصواريخ.

إن التعاون التكنولوجي في مجال الفضاء، وإقامة دفاع مضاد للصواريخ، قد يمثلان الدوافع لنهضة عسكرية وتكنولوجية وسياسية حقيقية في أوروبا. لقد دخلت أوروبا الرهان، فإما الانحطاط والزوال وإما التألق والإشعاع، وهذا الرهان يقوم على اللغز الألماني، ذلك أن جمهورية ألمانيا الاتحادية لم تحزم أمرها بعد بين البرنامج الأوروبي والبرنامج الأمريكي.

قاعدة اللعبة

في أقل من خمسة عقود زمنية، شهد العالم ثورات استراتيجية لها من الاتساع والسرعة ما لم يسمع به أحد.

تزامنت بداية عهد الرئيس ترومان (١٩٤٥) مع الانتقال من عصر المعارك التقليدية إلى عصر الاستراتيجية المتكاملة. ومع نهاية الولاية الرئاسية الأولى لريغان بدأ الانقطاع الثاني الاستراتيجي، الذي أخذت الولايات المتحدة زمام المبادرة فيه. ومنذ ذلك الحين دخل كوكبنا في مرحلة العسكرة المتكاملة.

ابتداء من العام ١٩٤٥ امَّحت فترة التوقف، التي عمرها ألف عام، الفاصلة بين زمن الحرب وزمن السلم، وتلاحمت الزمانية التاريخية: فعصر المجابهات المستمرة هو وليد السلاح النووي.

طرحت الولايات المتحدة ثلاثة برامج مدهشة غيرت من خلالها معطيات السياسة التقليدية والعلاقات بين الأمم.

كشف مشروع مانهاتان السمة الحاسمة لاستراتيجية الوسائط في فن الحرب.

أبولو، وهي الرد على تحدي سبوتنيك السوفييتي، قد منحت استراتيجية الوسائط مكان الصدارة في مجابهة الاستراتيجيات المتكاملة لدى الدولتين العظميين. ومبادرة الدفاع الاستراتيجي تنظم تعبئة القوى النشطة في الأمة الأمريكية. ففي المنافسة بين القوى العظمى على السيطرة، تدفع استراتيجية الوسائط منذ ذلك الحين في اتجاه استراتيجية التفوق على الخصم.

كان كل برنامج، بالتدريج، مخصصاً لتعزيز القدرة العلمية والتكنولوجية والعسكرية للأمة الأمريكية.

من مانهاتان إلى مبادرة الدفاع الاستراتيجي، شيدت أمريكا جهاز دولة فعال يقود هذه التحولات.

ثمة برامج كبرى، ذات إسقاطات غير مرئية ومثمرة، جمعت التمويلات وعبأت الطاقات أفضل من تخطيط تقليدي.

هذه المشاريع الكبرى وحدت الدولة الفدرالية والأمة، بدفعها حدود المغامرة العسكرية والطموح الوطني إلى آفاق أبعد، وقيادة القضايا العامة تتطلب السياسي والعالم والاستراتيجي.

تعزز دور الدولة الفدرالية كثيراً في ظل رئاسة رونالد ريغان. وفي ظل

درع المستقبل الفضائي المشكوك فيه كثيراً، أصبحت الأمة سيف أمريكا. وفرنسا، التي عرفت في عصر المعارك التقليدية، كيف تقود التجديدات العسكرية السابقة، عليها أن تمتلك زمام التحولات الاستراتيجية الجارية.

لدى البلاد الفرنسية وسيلة قوية تمثلها الدولة ــ الأمة التي بنيت عبر تاريخ فريد يمتد على مدى ألف عام. وكانت فرنسا تبدو عظيمة كلما عرفت دولتها كيف تشارك في التجديدات الاستراتيجية وتحركها.

وكانت تغرق كلما حطت السلطة من قدر الدولة.

الفئات الحاكمة، والأوساط السياسية والأركان، المنتشية بنصر العام ١٩١٨، غفت وراء خط ماجينو. الدولة، أداة الحماية الجماعية، لم تقم بإجراء التجديدات العسكرية في تلك الآونة.

كان شارل ديغول إذاً، أحد النادرين في فهم الصلة الجديدة بين الاستراتيجية والسياسة.

بعد أزمة السويس، وعودة ديغول إلى السلطة، أدرك مدى اتساع التحولات الاستراتيجية التي أحدثتها الولايات المتحدة منذ أكثر من عشر سنوات.

ولما كان يرفض انحطاط فرنسا، ويرفض الأمور التي تفرضها الدولتان العظميان، فقد قرر بناء القوة النووية الاستراتيجية، التي ستمنح البلاد ــ وكان مثل هذا القرار آنذاك موضع شك ــ شعارات السيادة الجديدة.

إن الانتقـال من الاستراتيجيـة المتكاملـة إلى منطـق العسكـرة المتكاملة، يطرح ثانية، وعلى فترات يزداد القرب بينها، مسألة مصير فرنسا، وبالنتيجة، مصير أوروبا.

ما دامت فرنسا قوية بما لديها من قوة نووية، عليها تحسينها، فهل هي قادرة على اتخاذ قرار بشأن استراتيجية جديدة قائمة على الدفاع الفضائي والمضي بها؟

يا لسخرية القدر المريرة، إن عدداً ممن جعلوا بالأمس من الاستقلال الوطني ضرورة مطلقة، ينضمون اليوم إلى مبادرة الدفـاع الاستراتيجـي الأمريكية، أو إلى «هندسة» إقليمية للدفاع الأمريكي المضاد للصواريخ في أوروبا.

إن حججهم تذكرنا بحجج الانهزاميين في الماضي.

لكن بعضهم يرى أن الدفاع الفضائي قد يكلف فرنسا ثمناً باهظاً جداً. وأنها قد لا تتمكن من إقامته لوحدها، وهؤلاء يساهمون في نشر الأدلة والبراهين التي كان الخصم يروجها عن القوة الضاربة قبل العام ١٩٦٠.

ويرى آخرون، ممن يحنّون إلى رابطة الدفاع الأوروبية، أن على فرنسا التخلي عن قوتها النووية المخصصة للردع، التي لم يكن عليها أن تعدها. ويغتبطون لطرح مبادرة الدفاع الاستراتيجي، التي قد تحكم بالموت على الردع النووي. وهكذا، يرون أن فرنسا يجب أن تندمج، مع الدول الأوروبية

الأعضاء في حلف شمالي الأطلسي، في دفاع مشترك مضاد للصواريخ، وتنضوي تحت القيادة الأمريكية.

هذا الخيار هو خيار الطائفة التي تشعر بالإحباط، والتي تقبل، مع تبعيتها العسكرية، بوضع «المقاولة من الباطن» والسيادة المحدودة.

حصول فرنسا على أنظمة جديدة من الأسلحة الأمريكية، يتمخض، مباشرة، عن أعباء كبيرة على ميزانيتها.

غير أن الثمن الاقتصادي والاجتماعي غير المباشر قد يكون أيضاً أكثر فداحة على مجتمعنا، المحكوم عليه، في ظل هذا الانحطاط للصناعات المتقدمة، بتدبر أمور فقدان جهازه الإنتاجي للمنافسة، وتشتت جهاز الحماية الاجتماعية لديه.

قد يترافق منطق التبعية التكنولوجية ـ العسكرية مع الإرهاق الاقتصادي، والتراجع الاجتماعي، وجعل بلدنا في سوية ثقافية عادية.

إن أنصار بناء أوروبا مستقلة، إزاء تحدي مبادرة الدفاع الاستراتيجي، يحدوهم الأمل بنهضة تصونها السياسة الإرادية للرئيس ميتران.

فبعد نجاح مشروع أوريكا، يبدو أن ثمة حيوية قد تفجرت، غير أن حكومات الدول الأعضاء في هذا المشروع تبدي تحفظها تجاه إيجاد سياسة فضائية مشتركة.

إن العمل بهذه السياسة الفضائية، في أفق الألف الثالث للميلاد، يتطلب بعض الالتزامات التي قد تنجم عن إرادة تفوق نوعياً هذا المجهود المتمثل بمشروع أوريكا.

لا يمكن للشعوب أن تبقى بمعزل عن هذه الرهانات الكبرى.

وفرنسا تريد، بحق، أن تعطي مضموناً سياسياً لمعاهدة روما وكذلك معاهدة الاليزيه الفرنسية ـــ الألمانية. وهي تنتظر جمهورية ألمانيا الاتحادية التي تتردد بخصوص التزاماتها الأوروبية. وترى فرنسا أن مشاريعها قد تأخرت.

النخبة القيادية، بمجموعها، تجهل أن المجابهة بين الأمم تتطلب، إزاء مبادرة الدفاع الاستراتيجي، إشراك بعض الأجهزة الإنتاجية، من الآن فصاعداً، القادرة على التقريب بين الجامعات والمخابر والمشاريع والقدرة الدفاعية، بقليل أو كثير من الفاعلية.

أما فرنسا. فقد رفعت تحولات الاستراتيجية الأمريكية، ثمن أمنها واستقلالها. غير أن برنامجاً فضائياً، يضم، إلى جانب ذلك، إسقاطات عديدة، فيه بعض الفوائد للاقتصاد. ذلك أنه قد يعزز تلاحم الأمة واستقلالية قرارها.

وبدلاً من انتظار الانطلاقة الأوروبية غير المتوقعة، فإن فرنسا، إذا ما شحذت إرادتها، قد تضمن لنفسها الوسائل الكفيلة بضمان إقلاعها الفعلي. وقد تجعل، في النهاية، إقامة دفاع مشترك أمراً ممكناً.

وهكذا يتحتم على الأغلبية الوطنية العاملة في مجال التقدم أن تدفع نحو الأمام برنامجاً طموحاً للدفاع الفضائي، وتنظم المجهود الجماعي.

سواء أأردنا أم لا، فإن التحولات الاستراتيجية تتسارع. غير أنها لا تغير قواعد اللعبة: دفاع الأمم عن حريتها أو الزوال.

الفهرس

نحو العسكرة المتكاملة

مشكلة الاستراتيجية
في العسكرة المتكاملة



العسكرة المتكاملة = La militarisation intergrale تأليف جيزيل شارزات؛ ترجمه عن الفرنسية عمر كربوج. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٠. ــ ١٩٣ ص.؛ ١٨ سم.

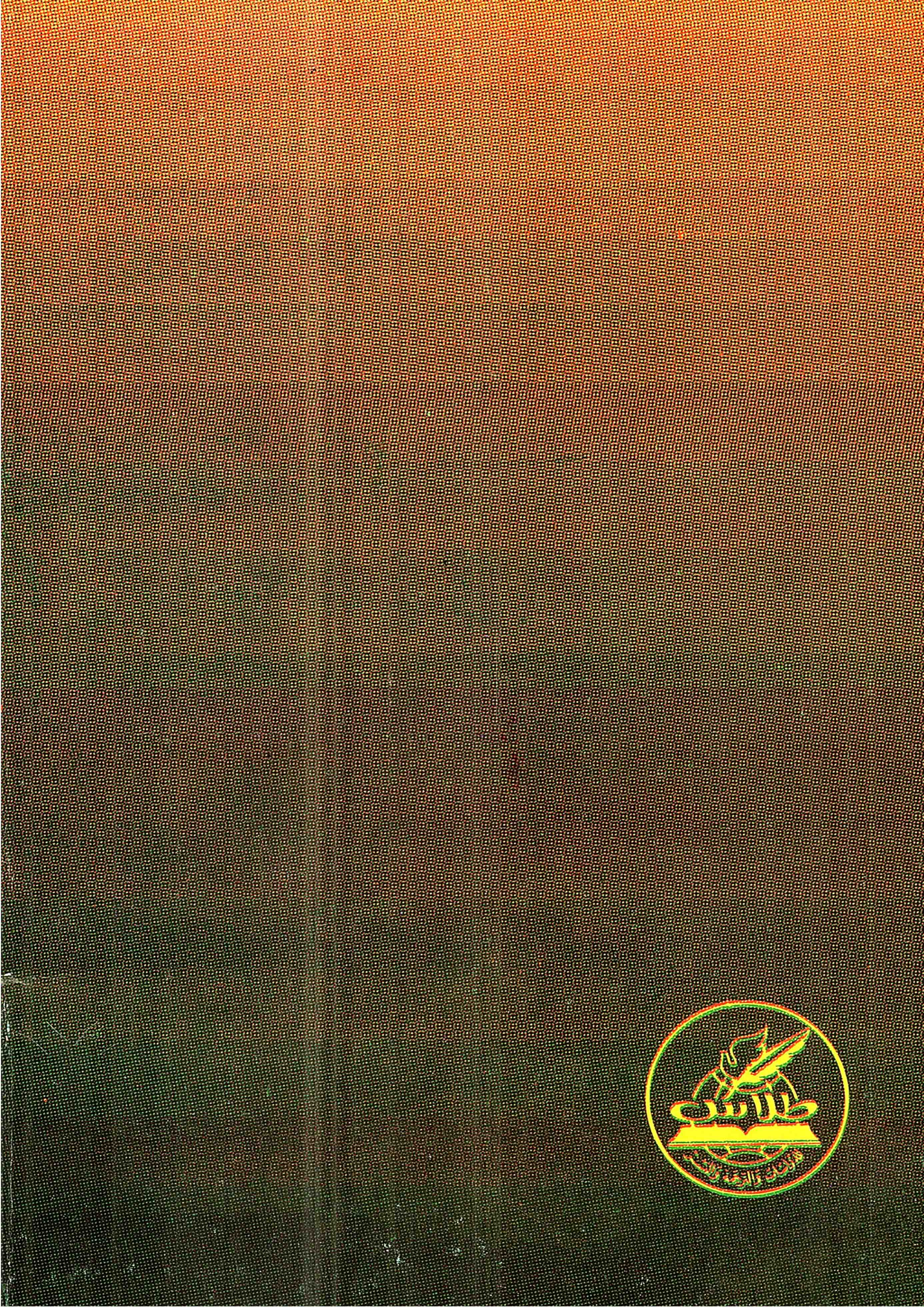
١ ــ ٣٥٥٫٤٧٧٣ شار ع ٢ ــ العنــوان ٣ ــ شارزات ٤ ــ كربوج

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٩٠/٣/٣٢٣

رقم الإصدار ــ ٤٨٣




طلاس